عنبر ٨

الكتاب : عنبر ٨
الكاتب : شرين حمدي
تصميم الغلاف : أحمد مصطفي
تدقيق لغوي : ميادة عادل
الإخراج الداخلي : مصطفي عبد الستار
رقم الإيداع : ٢٨٢٨٦/٢٠١٩
الطبعة : الأولى

٤ شارع كمال حسين متفرع من ومبي الهرم
ت : ٠١٠٠٥٧١٩٠٤٢ - ٠٢٣٥٩١٨١٨
Beyond.dbh@gmail.com
جميع الحقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

عنبر٨

رواية

شيرين حمدي

(١)

خريف ٢٠١٨.

جلس دكتور (درويش) على سريره متنهدًا في ضيق، أمسك بالجريدة يبحث فيها قليلًا وما لبث أن تركها جانبه في تملل.

فتح باب الغرفة ودخل منه شابين أحدهما يشبه الدكتور درويش بأنفه الطويل، لون عينيه ، طول قامته حتى جسده النحيل أما الآخر، فكان نقيض ذلك كان قصير ، ممتليء الجسد قليلًا وذُو وجه طفولي بشوش.

تهلل درويش وخاطبهم مازحًا:

- ما لسه بدري كنتم تعالوا بعد العصر أحسن!

رد عليه أنيس: عندك حق يلا يا سمير نمشي، ونيجي بعد العصر.

ثم رفع أكياس يحملها في يده، وأكمل:

- وبالمرة آكل الحاجات دي لوحدي.

قفز سمير علي السرير محتضنًا درويش:

- لا ياعم امشي أنت وكُل لوحدك ، أنا قاعد مع جدو عشان وحشني.

ثم رفع رأسه لينظر في عين جده:

- عامل إيه النهارده، أوعى تكون صابرين مضيقاك في حاجة؟

تدخل أنيس معاتبًا:

- هو أنت بايعني كده علي طول يا سي سمير؟ ماشي ربنا يهني سعيد بسعيدة، أروح أنا آكل لوحدي بقى، واسيبكم تحبوا بعض.

طرقت الممرضة " صابرين " الباب ودخلت بجسدها النحيل ووجها الخمري الدقيق حاملة صينية بها طعام الإفطار، وضعت الصينية على الطاولة المجاورة للسرير:

- صباح الخير يا دكتور.

- صباح الخير يا بنتي.

- انا جبت الفطار، بس نقيس الضغط الأول وناخد الدوا اللي قبل الفطار على ما الشاي يبرد عشان تاكل علي طول.

وقف أنيس بجانب الصينية يتفحص طعام الإفطار وهو مشمئز، رفع بطرف إصبعه الطبق الموضوع فيه بعض عينات من الجبن على حسب قوله ثم تركه مرة واحدة مما أحدث صوتًا عاليًا؛ انتفضت منه صابرين الممرضة.

قال أنيس ممتعضًا:

- إيه القرف ده؟! هو ده اللي الي بتسميه فطار يا هانم؟! الحمد لله إني جايب معايا أكل لجدي بدل ما معدته تنشف من الأكل ده.

قامت صابرين من مكانها بعد أن أنهت قياس الضغط، قالت بصوت مرتعش:

- افتح بُقك يا دكتور.

ثم وضعت حبة صغيرة داخل فمه وأعطته بعض الماء، تنهد سمير قائلًا :

-الأوضة مِضلمة جدًا ياريت يا أنسة تبقي تِفتحي الستارة والشباك كده تهوي الأوضة.

ذهب سمير للنافذة، وأزاح ستائرها قبل أن يفتح النافذة ، انتفضت صابرين وقالت بصوت مهزوز:

- لو احتجت حاجة ابقى رنلي الجرس يا دكتور، هروح أكمِّل مرور على النزلاء.

خرجت مسرعة من الغرفة، وأغلقت باب الغرفة بعنف خلفها، نظر درويش لأحفاده بلومٍ:

- هو أنتم كده، كل مرة تقعدوا تضايقوها.. البنت غلبانة جدًا، وشايفة شغلها كويس ولو على الشباك أنا قلتلها ماتفتحوش عشان الصبح بيبقى الهوا بارد ومش بستحمله، بالراحة عليها يا ولاد دي غلبانة.

ضحك أنيس قائلًا:

- أنت اللي طيب وغلبان يا درويش أنت ماتعرفش دي بتقول إيه!

قاطعه سمير محذرًا: بتقول صباح الفل يا أنيس .

تنبه أنيس لتحذير أخاه وصمت، جلس سمير بجانب جده يناوله بعض طعام وأبعد عنه الجريدة: سيبها يا ابني لسه مقرتهاش.

اعترض سمير بلطف:

- تقصد لسه ما قريتش صفحة الوفيات كعادتك، أنا مش عارف بتستفاد إيه من الموضوع دا ؟!

تنهد درويش قبل أن يجيب:

- بدوَّر فيها على أسامي كنت أعرفها وبحبها بس الزمن بِعدنا، كل لما افتح وملاقيش اسمهم بطمن إنهم لسه عايشين ويبقى عندي أمل يمكن في يوم نتقابل تاني.

عاتبه أنيس:

- هو احنا قصرنا معاك في حاجة؟ دا احنا كل يوم عندك من الصبح لحد ما يروَحونا من هنا غصب.

- عارف يا ابني أنتوا اللي ربنا عوضني بيكم، بس برضه نفسي أعرف أخبارهم ولو من بعيد واطمن عليهم.

تدخل سمير قاطعًا الحديث:

- طيب افطر الأول وبعدين دور على الوفيات براحتك يلا بقى أنا جعت.

مر اليوم كسابقه من الأيام، يجلس سمير وأنيس مع جدهم حتى منتصف الليل وعند دقات الساعة الثانية عشر بالضبط يستأذنون للخروج ثم يعاودوا الزيارة في الساعة التاسعة صباحًا.

في صباح أحد الأيام استيقظ درويش ليرى حفيديه جالسين جانبه علي السرير في انتظاره، تفاجأ قليلًا فليس من عادتهم أن يأتوا باكرًا أبدًا.

- صباح الخير يا ولاد، خير في حاجة مالكم جايين بدري ليه؟

احتضنه سمير قائلًا: وحشتنا قلنا نجي بدري نشوفك.

ضحك درويش: كُل بعقلي حلاوة يا ولا، ابعد كده وقول في أيه بجد؟

مد أنيس يده بالجريدة لجده الذي اختطفها بسرعة ليقرأ خبر وفاة الطبيب (رفيق محمد عبد العزيز) عن عمر يناهز ٥٦ عامًا ... إلخ.

سقطت الجريدة من يد درويش المرتعشة مع تساقط عبراته، احتضن سمير جده مواسيًا ، بينما انفعل أنيس مؤنبًا:

- أنت زعلان علي مين؟! ، هو أخر مرة سأل عليك ولا حتى سمعت صوته كان إمتى؟ أنت عارف أصلا أن رفيق دا هو الـ...

قاطعه سمير: من حقه يزعل سيبه يزعل وابعد عنه الوقت.

ثم نظر لجده بشفقة:

- لو عايزنا نمشي ونسيبك لوحدك شوية هنمشي، بس أنا عايز ابقى جنبك ومش هتكلم خالص.

مسح درويش عينيه بطرف يده، سحب مخاطه داخلًا ثم قال:

- لا يا سمير أنا عايزك .. عايزكم جنبي أنتوا أصلًا اللي ليا في الدنيا بس رفيق دا ماكنش زميل وبس دا كان كل أهلي لفترة طويلة أوي حتى لو مكناش بنتقابل بس كنت عارف أنه موجود ودلوقت حسيت إني مقطوع من شجرة.

ابتسم سمير متفهمًا وقبل أن يجيب على جده سمعوا طرقات خفيفة على الباب قبل أن تدخل الممرضة صابرين حاملة صينية الإفطار ككل يوم:

- صباح الخير يا دكتور .

تفاجأت صابرين بدموع الطبيب المسن: خير يا دكتور مالك؟

رفع درويش يده بالجريدة: دكتور رفيق عبد العزيز في ذمة الله.

نظرت صابرين بخوف للطبيب المسن وقالت بتردد:

- عارفة الله يرحمه، عشان كده مجبتش الجرايد لحضرتك بس مين اللي جابها ده كده ضغطك هيعلى؛ لازم نقيسه حالًا.

مد درويش ذراعه للمُمرضة الصغيرة وأجابها: أحفادي اللي جابوا الجرنان.

رفعت صابرين رأسها تنظر لدرويش في عدم تصديق لكنه ظن أنها ستَلومهم.

- ماتبصليش كده يا بِنتي هما مغِلطوش، هما عارفين رفيق إيه بالنسبة لي وعشان كده مخبوش عليا.

قامت صابرين من مكانها دون تعليق علي كلماته:

- ضغطك عالي شوية، هناخد الدوا وهبلغ الدكتور يجي يشوف حضرتك.

خرجت صابرين من الغرفة بعد أن أعطت الطبيب المسن دوائه، مد درويش يده في اتجاه أنيس:

- تعالى يا ابني جنبي، ومتزعلش كده، أنا عارف إنك خايف عليا بس متقلقش أنا زي الفل، هما شوية حزن علي الماشي كده.

اقترب أنيس من جده وجلس جانبه:

- أنا اللي مزعلني إنك بتزعل على ناس متستاهلش، أنت زعلك غالي علينا أوي يا درويش.

تنهد درويش قائلًا:

- ومين قالك إنهم ميستهلوش؟ وبعدين أنت عارف أنا أعرف رفيق ده من كان سنة؟ أكتر من أربعين سنة يعني تلتين عمري يا ابني!

قال سمير: يااه كل السنين دي تعرفوا بعض كنتوا زمايل في الكلية بقى؟

ابتسم درويش: لا كنا زمايل في عنبر ٨!

- إيه مش فاهم؟

تنهد درويش سارحًا بعينيه في الفراغ، رسمت شبح ابتسامة علي طرف الأيسر لشفتيه.

(٢)

خريف ١٩٧٥.

الصدفة هي تلك اللحظات المميزة التي تمر علينا لتترك آثارها طوال العمر، لكن هل كانت تلك صدفة ولن تتكرر؟، أم بداية لقدر جميل؟!، أشعر بالترقب والخوف من عدم تكرارها.

استلمت عملي اليوم في المشفى الجامعي - أدعو الله أن يجعل سنة امتيازي مميزة - أردت بشدة أن أعمل مع الدكتور (أبو العِلا)، في قسم الجراحات العامة لكن تم إرسالي لقسم الحروق، لم أكن أتوقع هذا أبدًا؛ فلقد وعدني الدكتور أبو العلا أن يأخذني في جناحه ولكن متى كانت الوعود مُلزمة!

عنبر الحروق أو (عنبر ٨) كما يُطلق عليه لا أدري هل لأن هكذا أيسر، أم مراعاةً لشعور المَرضى ولكن استلمت عملي في (عنبر ٨).

تعرفت أولًا علي زملائي، هناك طبيبان معي أحدهما ينهي سنة امتيازه أي أنني سأستلم منه العمل، كما تعرفت على العديد من الممرضات والتمرجية.

مر اليوم كثيف جدًا، لم أكن أعرف أن هناك هذا الكم من الإصابات بالحروق في يوم واحد، الحمد لله كانت أغلبها حروق من الدرجة الثالثة لا تستوجب مبيت المريض، شعرت بالراحة عند انتهاء دوامي، في طريقي للغرفة المخصصة للأطباء شعرت بأحد ما خلفي؛ التفت لأرى من لم يكن هناك أحد!

لم أكترث كثيرًا؛ فلقد كنت منهك وأريد النوم بأي شكل وبأسرع وقت، دخلت الغرفة وأخذت بعض أشيائي لأغير ملابسي ثم ذهبت لأبحث عن أي سرير فارغ بأي عنبر لأنام.

دخلت عنبر ٨ لأنني أعرف أن هناك سريران فارغان، ما أن دخلت حتى سمعت أنين قادم من إحدى السرائر الفارغة، أو المفترض أنها فارغة، اقتربت بحذر من السرير

وجدتها نائمة مثل الملائكة ،بشعرها الذهبي، بشرتها البيضاء النقية، تشبه مُطربتي ومُمثلتي المفضلة "صباح "، لكن من تكون؟ومتى أتت؟

صوت أنينها اختلع قلبي من مكانه ، شعرت بضرباته تزيد، وضعت يدي على صدري بحركة لا إرادية هل كنت بذلك أمنع صوته العالي من أن يصل إليها، أم حتى أهدئه قليلًا فلا يشق صدري ويخرج لها؟ ، تجمدت في مكاني لحظات قليلة قبل أن يُذيب جمودي صوتها الرقيق وهي تطلب المساعدة، تنحنحت من خجلي وبدأت في الكشف عليها، لديها حروق شديدة من الدرجة الأولى في جانبها الأيسر بداية من كتفها حتى خصرها.

يااه كم تألم قلبي لما تراه عيني وتلمسه أصابعي! ، ناديت علي التمريض لم يجبني أحد، تركتها قليلًا وذهبت لأحضر ما أحتاجه، حاولت ألا أرفع رأسي أبدًا وأنظر لها أكملت عملي بصعوبة، لم أكن أعرف عن نفسي ضعف القلب كان لقبي من أول يوم في الكلية "الجزار" وذلك بسبب ثباتي أمام أي حالة أو مهما كان ما نتعرض له، بالعكس أتعامل بلا مشاعر وذلك ما شجعني لاختار قسم الجراحات العامة، لكن ماذا يحدث الآن معي لما قلبي يدق بذلك العنف ، ترتعش أصابعي وتختنق أنفاسي وأنا أعالجها ؟!

انتهيت من معالجة جروحها، أعطيتها مسكن قوي ليرحمها من ذاك العذاب، رفعت عيني لتلاقي عينيها وابتسمت فابتسمت لي بالمقابل وعينيها مازالت تتلألأ بالدموع، لا أعرف من أين أتتني الشجاعة أو الجرأة مددت يدي ومسحت دموعها أصابعي، ثم ربت على رأسها بحنانٍ قبل أن أستأذنها وأذهب لسرير فارغ لأنام، بالطبع لم أستطع النوم سريعًا؛ كنت أتأملها من بعيد وهي نائمة حتى غلبني النعاس.

استيقظت في الصباح لأجد نفسي نائم على المكتب الموجود في غرفة الأطباء، كيف أتيت إلي هنا؟ ، هل كان كل هذا حلم؟!

قفزت من مكاني مسرعًا وذهبت لعنبر ٨ أتفقد سريرها، السرير فارغ لكن هناك آثار لنوم أحد ما عليه، ناديت علي الممرضة أسألها عن الحالة التي تنام هنا، أجابتني أن الحالة خرجت، ثورت عليها صائحًا كيف هذا؟ الحالة تحتاج أكثر من شهرين حتى تتعافى وتخرج، لم أجد رد من الممرضة سوى نظرة ازدراء وكلمة لا أعرف قبل أن تتركني وتذهب.

عدت للمكتب غاضبًا لأجد زميلي مبتسمًا بشوشًا استقبلني بحفاوة أنستني غضبي، سألني لما نمت على المكتب ولم تنم على أي من الأسرة الفارغة في أي عنبر؟!

لم أُرد أن أقص عليه تساؤلاتي حتى لا يأخذ فكرة غريبة عني.

مر اليوم كسابقه وأنا أركض بين الحالات حتى جاء الليل وأنا مُنهك القوى، أريد أن أنام بأي شكل، ذهبت لأنام كما فعلت بالأمس ، ما أن دخلت العنبر حتى وجدتها نائمة في مكانها، أسرعت الخطى واقتربت منها بهدوء، فتحت عينيها وابتسمت لي ابتسامة عذبة أذابت قلبي الذي يكاد يشق صدري ويخرج الآن.

سألتها أين كانت ولماذا تركت المشفى أم أن الممرضة قد كذبت عليَّ؟! أخبرتني أن والدها هو من أخرجها في الصباح لكن الألم كان شديد ولم يتحمل صوت بكائها في المنزل فأرسلها للمشفى مرة أخرى ، ما هذا الكائن المجرد من المشاعر كيف يفعل هذا بابنته؟

ناديت على التمريض ولم يُجبنِ أحد مرة أخرى؛ فذهبت بنفسي وأحضرت ما أحتاجه لأغير على جروحها ، تلكأت كثيرًا وأنا أغير علي الجرح حتى أظل معها أطول مدة ممكنة، لكن لم يسعفني عقلي بفتح أي حوار معها بالعكس عندما سألتني عن اسمي تلجلجت وأنا أجيبها -لا أعرف ماذا دهاني؟!- أعطيتها الدواء وانتهيت عملي معها

لم يعد هناك سبب لأظل معها استأذنت منها وأنا لا أرغب بذلك حقًا لكن لابد أن ترتاح كما أن عقلي لا يسعفني في بدء أي حوار معها نهائيًا، لذا فلأذهب بما تبقى من ماء وجهي.

نمت على السرير المجاور لها، ابتسمت لي قبل أن تتمنى لي نومًا هنيئًا فضعت أنا وغرقت بأحلامي.

استيقظت باكرًا بسبب ألم في ظهري لأجد نفسي أنام مرة أخرى على المكتب وإحدي أدراج المكتبة التي خلف المكتب مفتوح ويضغط على ظهري ، ماذا يحدث هنا؟ هل أصبحت أسير وأنا نائم ؟!

دخل علي زميلي البشوش مُلقيًا بعض نكاته قبل أن يدرك أن بي علة ما، سألني باهتمام ماذا بي؟ ورغم اهتمامه هذا لم أستطع أن أقص عليه ما يحدث وكيف أنني أستيقظ كل يوم نائمًا على المكتب فلابد وأن الإرهاق هو ما يفعل بي هذا.

دخلت رئيسة التمريض تسألني عن بعض الأدوات التي استخدمتها أمس، أجبتها أنني من أخذت تلك الأدوات لأغير على جراح مريضة، ثم عاتبتها كيف لا يكون هناك أحد ليُساعدني وأين يذهبون بالليل؟!، كيف لا يكون هناك حتى تمرجي واحد ليرعى المرضى ليلًا، نظرتها لي لم أفهمها جيدًا، هل كانت دهشة؟ أم تسأل ربما عطف! لا أعرف لم أرتح لنظرتها التي اكتفت بها دون أن تجيب على تساؤلاتي ثم طلبت مني أن أدون كل ما أستخدمه في دفتر معين حتى يسهل جرد النواقص بعد ذلك.

باقي النهار كان العمل خفيف في قسم الحروق؛ لذلك استطعت أن أختلس بعض الوقت وأذهب لأراها بحجة أن أغير على جروحها، لم أجدها في سريرها مرة أخرى.

ناديت إحدى فتيات التمريض لأسألها عن الحالة وأنا متوجس خيفة أن تكون رحلت مرة أخرى، أخبرتني أنها ذهبت للمرحاض، هدأ قلبي قليلًا، جلست أنتظرها لكنها أطالت الغياب وفي تلك الأثناء نودي عليّ لأتابع بعض الحالات، مر الوقت سريعًا بعد ذلك لم يكن هناك وقت نهائي لأذهب وأراها.

أنهيت عملي وذهبت لغرفة الأطباء تحممت وغيرت ملابسي لأذهب إليها، أوقفني زميلي البشوش مخبرًا إياي أن هناك سرير فارغ بجانب السرير الذي ينام عليه في (عنبر ٦) اليوم فلا داع لأذهب وأنام مرة أخرى علي المكتب، ما هذه الورطة؟

تعللت أنني نسيت بضعة أشياء في دورة المياه، وأني سأذهب لإحضارها ثم أعود إليه.

دخلت (عنبر ٨) على أطراف أصابعي حتى لا أُوقظها إن كانت نائمة، ابتسمت أول ما رأتني قالت بخجلٍ وهي تنظر للأرض:

- لقد كنت أنتظرك وأخشى ألا تأتي.

شعرت بمس كهربائي يسري بقلبي، تلاحقت أنفاسي من فرط السعادة أكانت تنتظرني؟ هل تشعر بما أشعر به؟ جزعت عندما طال صمتي؛ فلقد فهمت أنني لست مهتم.

اعتذرَت عما قالت وفسرت أنها كانت تنتظرني لأغير علي جروحها، لا أعلم من أين أتتني الجرأة مرة أخرى؛ فإذا بي أُمسك أناملها الرقيقة بيد وأربت عليها باليد الأخرى، سألتها عن اسمها، بادلتني الابتسام، قالت: (هيام) ثم نظرت في عيني كأنها تثقب أعماقي وأكلمت أن ذلك هو الاسم الذي تشتهر به، ولها اسم أخر لن تخبرني به اليوم بل ستكتفي بهيام، ابتسمتُ أنا الآخر تاركًا يدها من يدي وابتعدتُ خطوة للوراء ماددًا ذراعي طالبًا المصافحة بعد انحناءة صغيرة، قلت لها لقد تشرفت، ضحكتُ وضحِكت وشعرت أن المرضى حولنا يضحكون هم أيضًا، بل سمعتهم فتنحنحت مُحرجًا

حاولت أن أجمع شتات نفسي وذهبت لأحضر ما أحتاجه للتغير على الجرح، طال لقائنا اليوم قليلًا عن سابقيه ، استأذنت منها كي أذهب لأنام في السرير المجاور لها فسألتني بخجل عن سبب نومي هنا، أ ليس لي سرير في مخدع الأطباء؟ أحترت ماذا أخبرها؟!، هل أخبرها أن أطباء الامتياز ليس لديهم مكان مخصص للنوم، هي مجرد حجرة لجميع الأطباء بها مكتب، مكتبة وأريكتين، حتى أننا نتناوب الجلوس.

لا أستطيع أن أفعل، تعللت أنني أريد أن أطمئن عليها وعلى المرضى الذين أتابع حالاتهم، وبذلك لم أكذب ولكن أخبرتها نصف الحقيقة فقط وهي أنني أريد أن أكون بالقرب منها.

(٣)

خريف ٢٠١٨

جلس درويش على مقعده المتحرك، دثره سمير بوشاح ثقيل فاعترض أنيس قائلًا:

- مش للدرجة دي، الجو لسه مبقاش برد كده هتُخنقه.

نظر سمير لجده متسائلًا، فأجاب درويش:

- فعلا الجو مش برد، بس هاته معانا احتياطي يمكن أسقُع برضه العضمة كبرت.

تعالت ضحكات درويش وأحفاده، لم يقطعها سوى نقر صابرين علي الباب قبل دخولها الغرفة، نظرت للطبيب العجوز بدهشة:

- على فين يا دكتور ؟!

- على الجنينة، اتخنقت من القعدة في الأوضة.

- طيب مقُلتليش ليه؟ بص استناني شوية أدي الدوا للحج موافي وارجعلك أخرجك في الحتة اللي أنت عاوزها.

ابتسم درويش قائلًا: مفيش داعِ أحفادي هيخرجُوني.

ما أن سمعت صابرين تلك الكلمات حتى أرجفت وتمتمت ببعض الكلمات غير المفهومة وخرجت مسرعة، الأمر الذي أثار استياء أنيس كالعادة.

- هي مش طَايقانا ليه؟! وكل ماتجيب سيرتنا كأنك جبت سيرة عفريت.

ضحك درويش:

- متظلمهاش يا أنيس، أنت اللي حاطتها في دماغك، قلتلك قبل كده البنت غلبانة وواخده بالها مني كويس، ويلا بقي هتخَرجوني للجنينة ولا أرجع للسرير تاني؟!

دفع سمير جده علي المقعد المتحرك خارجًا من الباب إلى الحديقة وسط نظرات ذهول وهمهمات من المحيطين بهم، الأمر تلك المرة كان جليًا جدًا، ومع ذلك لم يشعر درويش بالضيق من تلك النظرات، هل اعتادها أم لم يعد يكترث لها؟!

اقترب سمير من شجرة كبيرة ظليلة، اعتادوا الجلوس عندها لكن ما أن أقترب حتى وجد إحدى الفتيات تجلس تحتها وتستظل بها، رفع درويش ذراعه يحث سمير علي التوقف، تأملها قليلًا، لماذا يشعر أنه رأها قبل ذلك؟ ، جسدها الطويل الممشوق، طريقة جلوسها تبدو مألوفة جدًا ، خاطب سمير هامسًا:

- مكاننا النهارده مشغول، تعالو نروح عند الشجرة اللي هناك دي.

قبل أن يبدي أنيس اعتراضه، التفتت الفتاة إليهم، ابتسمت وقامت من مكانها مقتربة من درويش مادة يدها لتصافحه، نظر لعينيها أنها تشبه عين أمه بلونها العسلي الفاتح المشبوب بالخضار، لماذا تذكر والدته الآن؟!

- أنا هيام الدكتورة الجديدة هنا وحضرتك الدكتور درويش علي صالح مش كده؟

ابتسم درويش قائلًا: إنتِ عرفاني؟!

- أكيد يا دكتور، تاريخك المشرف الحافل بكل الانجازات دي أشهر من النار علي العلم.

تهلل وجه درويش لم يكن يظن أن هناك من يتذكره خصوصًا عندما أصر على تقاعده المبكر وفضَّل المكوث في دار رعاية بدلًا من أن يكمل مساره الطبي، تدخل أنيس ليقطع ابتسامة درويش:

- أنا مش مرتاح لها أكيد في حاجة وراها.

ثم التفت إليها مخاطبًا: ها وبعدين بعد ما اتعرفتِ عليه؟

رفع درويش عينيه لينظر إلى حفيده نظرة لوم قبل أن يجيب الطبيبة الجديدة:

- شكرا لذوقك يا بنتي تسمحيلي أقولك بنتي؟

- آه طبعًا أنا ليا الشرف.

ابتسم درويش وأكمل: هسيبك تكملي قعدتك براحتك عن إذنك.

قاطعته هيام:

- حضرتك مش مضايقني، بالعكس اتشرفت بالكلام مع حضرتك واتمنى تقبل عزومتي على فنجان شاي باللبن .

ثم أشارت إلى حافظة مشروبات ساخنة بجانب الشجرة، ابتسم درويش وقال مازحًا:

- مدام شاي بلبن أنا مقدرش أقول لأ.

ضحك الاثنان مما استفز أنيس وما أن هم بالكلام حتى أمسك سمير يده ليمنعه من الكلام وقال هامسًا:

- سيبه يقعد معاها شوية، مش هيحصل حاجة.

رد أنيس بتحفظ: هو أنت مش شايف اللي أنا شايفه ؟!

همس سمير : شايف بس هو مش شايف.

أشار درويش لأحفاده وقال بلطف:

- أنا هقعد مع الأنسة شوية يا ولاد أنتوا ارتاحو.

ابتسمت هيام وأقبلت ناحية الطبيب المُسن قائلة: اسمحلي.

ثم أمسكت المقعد المتحرك ودفعته بلطف في اتجاه الشجرة، ما أن أدارت المقعد ناحية الشجرة حتى رأي درويش الجلسة اللطيفة التي أعدتها الطبيبة الصغيرة لنفسها، بساط صغير ، وسادة مُسندة على جزع الشجرة، حافظة الشاي وكتاب، ابتسم درويش قائلًا:

- بس أنا كده مش هقطع عليكِ قعدة الصفا بتاعتك؟!

ضحكت هيام على كلماته الرقيقة:

*لا خالص أنا سعيدة إني اتعرفت على حضرتك، وبعدين أنا بقعد القعدة دي كل يوم بس المكان بيختلف حسب ما بلاقي شجرة فاضية.

- لو على كده هسيبلك الشجرة بتاعتي تقعدي براحتك، إنتِ بتلاقي وقت منين كل يوم تقعدي مع نفسك كده؟! افتكر وأنا صغير لسه في بداية حياتي المهنية مكنش عندي وقت آخد دش حتى ولو في ربع ساعه فاضية كنت أفضَّل أني أنام.

جلست هيام في مكانها أسفل الشجرة وأعدلت الوسادة خلف ظهرها قبل أن تجيب:

- هو حصل لبس في تعريفي بنفسي يمكن من حماستي لما اتعرفت على حضرتك، أنا هنا المستشارة النفسية للدار بس أنا مش خريجة كلية الطب أنا خريجة آداب قسم علم نفس وعملت ماچستير في علم الوراثة السلوكية، وتأثير علاقة الجين المُرشح والبيئة في السلوك والمرض العقلي .

- ده علاقته إيه بالدار هنا؟!

- مالوش علاقة أنا بحضر للدكتوراة بتاعتي ومحتاجة شغل يكون بسيط مواعيده مش طويلة، عشان أقدر أفضي وقت لتحضير الرسالة بتاعتي، جاتلي فرصة أني اشتغل هنا، المكان مناسب ، الشغل مريح وأكيد المرتب حلو فقلت ليه لأ؟

نظر الطبيب المسن للكتاب الموضوع على الأرض قبل أن يقول:

- بتقري إيه؟

رفعت هيام الكتاب وأعطته لدرويش: مئة عام من العزلة.

ابتسم درويش بعد أن أخذ الكتاب:

- أنا بعشق كتابات غابرييل ماركس، تحسي أنه كان سابق عصره، الكتاب دا بالذات قريته أكتر من ٠١ مرات.

- أنا مقريتش ليه حاجة تانية الصراحة ..

تنحنحت قبل أن تكمل لشِعورها بالإحراج:

- أنا لسه جديدة في عالم القراية، كنت يادوب بحب أقرأ الروايات الرومانسية الساذجة اللي في الآخر البطل والبطلة بيتجوزوا ويعيشوا في تبات ونبات ويخلفوا صبيان وبنات، بس واحدة صحبتي نصحتني بالكتاب دا قالتلي هتلاقي فيه كل اللي نفسك فيه وكمان هتطلعي بمضمون.

شعر درويش بإحراجها؛ فتدارك الموقف بخفة ظله:

- وماله لما البطل والبطلة يتجوزوا في الآخر يعني لا يبقى حقيقة ولا خيال؟!

ضحك الاثنان مما أثار غيرة أنيس الجالس بعيد عنهم لا يسمع ما يقولون، أكمل درويش حديثه مع هيام:

- "فكلما تلاشت الأحداث من ذاكرتنا، أعادها الكون في شخصيات وأزمنة مختلفة."

نظرت هيام لدرويش نظرة عدم فهم: ده اقتباس من الكتاب؟!

ثم تنحنح قبل أن يكمل:

- مش بقولك قريته أكتر من ١٠ مرات يعني تقدري تقولي حفظته.

قالت هيام بانبهار: إيه الي خلاك تقراه كل المرات دي؟

ابتسم درويش مجيبًا:

- يمكن عشان أول كتاب أقراه أنا كمان، إنتِ عارفة إن شغلي ودراستي كانت واخده كل وقتي ولو عندي وقت كنت بأقرأ في كتب الطب، وفي سنة من السنين كنت في معرض واشتريته وقُلت أول ما يبقى عندي وقت هَقراه، تعرفي أنه قعد مستني أكتر من ٥١ سنة لحد ما تقاعدت وبقيت فاضي وقريته؟! ، وممكن عشان الكاتب قدر يخلق تاريخ قرية كاملة من بدايتها على إيد (خوسيه أركاديو) وعدد قليل من أصدقائه ومراحل نمو القرية لحد ما بقت تقريبًا مدينة صغيرة رغم الصراعات والحروب، وطبعا الحاجات اللي كتب عنها زي البساط الطائر والتلج في زمن كانت لسه الأفكار دي لسه جديدة فيه، حسيته بياخدني لعالم تاني دنيا كنت أتمنى أعيش فيها.

تساءلت هيام باهتمام: ومالها الدنيا اللي هنا؟

لم يجد درويش إجابة يستطيع أن يقولها بصدق؛ فغير الحديث:

- تعرفي إني عملت شجرة العيلة لشخصيات الرواية؟! أما تبقي فاضية ابقي تعالي وأنا اوريهالك.

ثم ضحك بصوتٍ عالٍ: مش قلتلك عندي وقت كتير فاضي.

مر الوقت سريعًا بين درويش وهيام دون أن يلحظ، رفعت هيام يديها تنظر في الساعة ثم اعتذرت من درويش:

- أنا آسفة جدًا... بس البريك بتاعي خلص تقريبًا من ساعة، أنا مستغربة أن محدش جه يدور عليا بس لازم أقوم مش عايزة أدي انطباع وحش عني من الأول.

- طبعًا يا بنتي روحي شوفي شغلك.

صافحته هيام وهي تقول:

- أنا عايزة منك وعد أن القعدة دي تتكرر مرة تانية.

- دا يبقى من حظي.

ثم رفع أصابعها وقبَّلها قُبلة خفيفة ارتجفت منها هيام فاعتذر مسرعًا:

- أنا آسف لو ضايقتك، بس علي زماني كنا بنسلم كده علي الناس العُزاز والهوانم.

ابتسمت هيام بحرجٍ دون أن تنبُث بكلمة ثم لوحت مودعة وانصرفت.

أقبل أنيس وسمير علي درويش، بادر أنيس بالكلام:

* أنت نستنا خالص...طيب كنتم كملوا القعدة للعشا أحسن.

قال درويش مداعبًا: كان نفسي بس هي عندها شغل.

ثم غمز لسمير وأكمل: صاحبك غيران ولا إيه؟

ضحك سمير وهو يحتضن جده: جدًا...كنت ماسكه بالعافية.

- كتر خيرك يا سي سمير، يلا بقى رجعوني الأوضة لاحسن تعبت من القعدة دي.

دفع سمير المقعد المتحرك في ظل دندنة درويش أغنية (صدفة).

تكررت لقاءات درويش وهيام كل يوم في موعد الراحة، حتى أصبح درويش ينتظر تلك اللحظات طوال اليوم، يشعر أنه يعرفها منذ زمن، تذكره بأشياء كثيرة وأشخاص فارقهم منذ سنين ، الأمر الذي أثار استياء (أنيس) بشدة فأصبح أكثر عدوانية.

في صباح أحد الأيام وكالعادة جاءت صابرين بصينية الإفطار لدرويش:

- شكلك رايق ومروق النهاردة يا دكتور خير إيه اللي حصل؟

ضحك درويش: النهارده بس.. قولي يا عفريتة عايزة تسألي علي إيه؟!

- بصراحة مش النهارده بس لكن بقالك فترة رايق ومبتسم، بتحب تخرج للجنينة كتير وخصوصًا وقت البريك.

ثم غمزت له وهي تتساءل مقلدة صوت هنيدي:

- كان في حاجة إن شاء الله؟

ضحك درويش:

- ما إنتِ متابعة وواخده بالك من كل حاجة عايزة إيه بقى؟

- عايزة اطمن عليك يا كبيرنا حضرتك ماتعرفش غلاوتك إيه عندنا.

- اطمني هو أصلًا مفيش موضوع، الحكاية إني لاقيت حد أخيرًا اتكلم معاه وأحسه فاهمني من غير رغي كتير، عندنا ميول مشتركة وممكن أفيده، نسيت إحساس إني أفيد حد.

في تلك الأثناء وبعد أن انتهي درويش من تلك الجملة، دخل أنيس غاضًبا وهو يصيح:

- أخيرًا لقيت اللي فاهمك؟! ...ولقيت حد تتكلم معاه؟! واحنا إيه... إيه؟

ثم أطاح ببعض الكتب الموضوعة على الطاولة، انتفضت صابرين وركضت خارج الغرفة، حاول درويش أن يمتص غضب حفيده:

- أكيد أنتم موجودين وكل حياتي بس أقصد حد ممكن أفيده ، يتعلم مني حاجة، أحس إني بعمل حاجة مش أكتر من كده، لكن أنتم حاجة تانية، أنتم السبب إني لسه عايش.

اعتقد درويش أن أنيس سيهدأ عندما يسمع هذه الكلمات لكن العكس هو ما حدث، لقد ثار أنيس أكثر وأصبح أكثر عنفًا، يكسر كل ما يأتي أمامه، سمير يقف ساكن لا يفعل شيء بل ينظر بعينين فارغتين.

خارج الغرفة تجمع العديد من النزلاء والعاملين في الدار إلا أنه لم يتحرك أحد ويدخل الغرفة ليحل الأمر أو يأخذ درويش من الداخل، اكتفوا بالاستماع لما يحدث والتمتمة ببعض آيات القرآن الكريم.

(٤)

خريف ١٩٧٥.

استيقظت اليوم وكالعادة على كرسي المكتب، لم أعد أندهش من هذا الموضوع، لم يكن لديّ تفسير سوى أن الإرهاق يجعلني أسير وأنا نائم، لكن زميلي البشوش يرى أن هناك أمرًا آخر وراء هذا الانتقال.

سمعت بعض زملائي يتحدثون أن أحداث غريبة ومواقف مخيفة تحدث هنا، لذا أصر زميلي البشوش على أن ما يحدث معي هو موقف من تلك المواقف لكن أنا لا أصدق بتلك الأشياء؛ فأنا لا أصدق ما لا أراه بعيني ولأنني لم أرَ شيء مماثل لما يقولونه فكل هذا مجرد هراء.

اليوم وبعد استيقاظي بدقائق سمعت صريخ زميلة لي ، خرجت مسرعًا لأرى ماذا هناك، كانت الفتاة في حالة هستيرية لم نستطع أن نفهم ماذا حدث كل ماعرفته أنها كانت في دورة المياه ثم خرجت في تلك الحالة، تركناها تذهب مع بعض الزميلات والممرضات في محاولة لتهدئتها.

مر اليوم كثيف جدًا، لم يكن هناك وقت حتى لتناول الطعام، كان هناك حادث حريق كبير ، العديد من المرضى والعديد من الحالات الحرجة، ما أن انتهيت من آخر حالة حتى شعرت بالإرهاق الشديد، أخذت ملابس نظيفة وذهبت لدورة المياه حتى أتحمم، بعد انتهائي سمعت أحد ما يناديني، صوت يأتي من بعيد لا أعرف من أين؟ ، أخذت أشيائي ورددت علي الصوت من أنت؟ وأين تكون لكن لم أسمع رد سوى اسمي مرة أخرى، تحركت في اتجاه غرفة الأطباء لأضع أشيائي قبل أن أذهب ل(عنبر ٨)؛ فلقد مر اليوم بأكمله دون أن أراها أقصد دون أن أغير على جراحها لا أريد أن أتأخر أكثر من ذلك ، وأنا أسير في اتجاهي شعرت بأحد ما خلفي التفتُ أرى من، لم أجد أحد ، أكملت طريقي مرة أخرى ومازلت أشعر أنني لست وحدي، تركت أشيائي،

وذهبت ل(عنبر ٨) قبل أن أدخل العنبر جذبني أحد ما من خلفي ، نظرت ولم أرَ أحد ، اعتدلت ،عدلت من هيأتي وهممت أن أدخل، سُحبت مرة أخرى ولكن تلك المرة سقطت على الأرض من شدة الجذبة ماذا يحدث معي؟!

لا أرى أي أحد فمن يفعل ذلك بي ، صرخت بصوت عالٍ وسألت من تكون في تلك اللحظة وجدت (هيام) تخرج من باب الغرفة، اقتربت مني محاولة مساعدتي على الوقوف، أمسكت يديها فأصابتني رجفة تدب في كل أوصالي كأنني مراهق صغير يمسك يد ابنة الجيران لأول مرة، لا أعرف إذا كانت شعرت بما أشعر به ولكنها سحبت يدها بسرعة ما أن وقفت على قدمي ثم نظرت بخجل للأرض، دخلنا الغرفة وأجلستها على سريرها قبل أن أبدأ في الغيار على الجروح، بالطبع تلك المرة لم أبحث عن أحد ما يساعدني فأنا لا أرغب أن أشارك أوقاتي معها مع أحد أخر ، بعد أن انتهيت من الغيار جلست على طرف السرير عند قدميها تقريبًا، نظرت باندهاش لكن لم يبدو أنها مستاءة من تصرفي أو تريدني أن أذهب، شعرت بأن رغباتنا في الجلوس سويًا متبادلة، سألتني عما حدث بالخارج فقصصت عليها ما حدث وأنا لا أجد تفسير لهذا الموقف، سألتني ماذا كنت أفعل قبل آتي إليها؟ فأخبرتها:

- أنني كنت أستحِم.

نظرت لي طويلًا ثم قالت بهدوء يشوبه الإنذار:

- "لا تتحمم بعد منتصف الليل أبدًا، انتظر حتى الصباح فهناك من ينام!"

ثم تنحنحت وأصبح صوتها طبيعي جدًا كأن من كانت تتكلم أحد أخر وليست هي، حاولت أن لا أكترث لما حدث لكن بما أنني أذكره الآن واكتبه فذلك دليل على أنه شَغل حيز من تفكيري، تبادلنا بعض الكلمات بعد ذلك واستأذنت منها حتى أذهب وأنام ولكن اليوم لم يكن هناك أسرة فارغة في العنبر؛ فسألتني:: أين سأنام؟ أجبتها أنني سأبحث عن أي مقعد فارغ وأنام عليه حتى الصباح

أشارت لي على مقعد

- لا أعرف من أين أتى؟

- موجود في الجانب الآخر من الغرفة، فهمت ما تقصد فأخذت المقعد ووضعته قرب سريرها، رفعت قدمي علي طرف السرير مكان جلوسي ونمت.

اليوم أستيقظت في مكاني، لم أجد نفسي على المكتب كعادة كل يوم ، نظرت مكان نومها وجدتها جالسة تنظر إليَّ وتبتسم.

سألتني هل نمت براحة والغريب في الأمر أنني نمت براحة جدًا كأنني كنت نائم في فراش وثير وليس على مقعد خشبي رافعًا قدمي على سرير أقل ما يقال عنه أنه قاسي.

تبادلنا بعض الكلمات في ظل نظرات مريبة من المحيطين بنا لم أرد أن أطيل الكلام معها أكثر من ذلك رغم رغبتي، حتى لا يتضايق من حولنا أو يُضايقوها ، ربت على رأسها في حنان وأخبرتها أنني سأحاول أن آتي مبكرًا اليوم .

مرت الأيام علينا وأنا أسرق بضع دقائق وقت الظهيرة لأراها إما بالليل أُغير على جراحها ونتسامر.

في تلك الأثناء لاحظت ابتعاد كل زملائي عني، الكلام بيننا شبه معدوم إلا إذا كانت هناك حاجة تستوجب الحديث، باستثناء زميلي البشوش، أما طاقم التمريض فكله يتجنبني!

اليوم مثلا كانت هناك حالة تحتاج تقطيب وتنظيف بدقة على الجرح ناديت على الممرضة القريبة، تركتني وذهبت أخذت أنادي بصوتٍ عالٍ حتى جاءت رئيسة النبطشية بنفسها وساعدتني لكن بدون أن تنبث بكلمة، بعد أن انتهينا سألتها عما حدث منذ قليل وكيف لتلك الممرضة أن تتجاهلني بهذا الشكل؟ ، لا أستطيع الإنكار أنني كنت ثائرًا جدًا وصوتي عالي، لم يكن من رئيسة النبطشية سوى أنها ربتت على كتفي بحنان، ولم تتكلم بل تركتني وذهبت.

أصبح غضبي عارم لم أتمالك نفسي، ذهبت لرئيس القسم المسؤول وأخبرته بالواقعة ، تعامل معها كما يجب وخصم يومين للممرضة التي تجاهلتني، ثم جمع كل طاقم التمريض وأخبرهم أن أي تكاسل مثل هذا أو تصرف مشابه فيه إهانة لأي طبيب سيكون الخصم أسبوع وإن تكرر تحويل للتحقيق، اعتذر الطاقم كله وبالطبع قبلت اعتذارهم ولكن أردت أن أشكر رئيسة النبطشية عما فعلته، فسألت عليها أجابني رئيس القسم أنها استأذنت منذ ساعتين وخرجت!

أخبرتهم أن هذا غير حقيقي، لقد ساعدتني مع ذلك المريض منذ أقل من نصف ساعة، علامات الدهشة والريبة التي رأيتها على وجوه من حولي، أكدت علي كلام رئيس القسم ، إذًا من ساعدني و...؟! لا أستطيع التفكير سأذهب وأسأل المريض.

ذهبت لحجرة الغيارات أبحث عن المريض لم أجده، لا يهم سأسأله غدًا عندما يعود ليَغير على جراحه .

مر اليوم عليَّ وأنا في حالة يرثي لها أحاول أن أدرك ما يحدث معي ، حل المساء وأنهيت دوامي فذهبت راكضًا ل(عنبر ٨) حتى أراها لعلَّ وجهها النديّ يزيح ما يثقل كاهلي ويصفي ذهني.

ما أن دخلت ورأيتها حتى أثلج صدري، نسيت ما حدث وما سيحدث ، كانت اليوم مختلفة، وجهها يشع نورًا أم أن عينيها أكثر بريقًا، أقبلت عليها مبتسمًا، طلبت مني أن أغلق عيني ففعلت ثم طلبت أن أفتحها وعندما فتحتها فاجأتني بكعكة صغيرة مزينة في منتصفها شمعة، خفق قلبي بشدة كيف عرفت أن اليوم عيد ميلادي أنا عادة لا أحتفل به؟! ، لا أحبه ولا أنتظره، لا أعرف لما دق قلبي بعنف هكذا وفرحت كطفل صغير أعطيته بالون كبير ، سألتها كيف عرفت أن اليوم عيد ميلادي ابتسمت في دلال ولم تجب

لم أتوقف كثيرًا عند هذا السؤال بل انحنيت أنفخ شمعة الكعكة الموضوع على ساقيها الممدودتين أمامها ، رفعت عيني أنظر لها في امتنان تلاقت أعيننا طويلًا، سبحت في مقلتيها

في ذلك البحر شديد الحلكة لا أجد شطًا أرسوا عليه ولا سترة نجاة تحميني، تذكرت كلمات العندليب وهو يقول: " الموج الأزرق في عينيك يناديني نحو الأعمق

وأنا ما عندي تجربة في الحب ولا زورق

إني أتنفس تحت الماء إني أغرق ..... إني أغرق أغرق أغرق "

وغرقت فعلًا!

(٥)

خريف ٢٠١٨ .

خيمت الكآبة على درويش ، أصبح لا يتحدث مع أي أحد ، لا يخرج من غرفته ، ولا يقابل أي أحد سوى أنيس، سمير وصابرين بحكم عملها ، لكنه أصر على عدم التحدث معها مهما حاولت أن تجذبه لحديث ما:

- صباح الخير يا دكتور.

في تجهم أجاب: صباح الخير.

- أخبارنا إيه النهارده؟

- الحمد لله .

إجاباته المقتضبة كانت لقطع أي سبيل لفتح حوار معه، لكن صابرين لم تيأس وحاولت أن تفتح مجال لحديث:

- شوفت اللي حصل يا دكتور، مش عم موافي أنت عارفُه ولاده جم عملوا مشكلة كبيرة أوي مع الدار وكنت هروح في الرِجليين بس الحمد لله ربنا ستر.

- الحمد لله.

جلست صابرين علي طرف السرير بعد أن أعطت الدواء لدرويش.

- طيب مش تسألني عملوا مشكلة ليه؟

نظر درويش بعيد عنها من خلال النافذة، نظرت صابرين للنافذة كرد فعل ثم قامت من مكانها:

-عندك حق افتح الشباك يدخلك شوية هوا حلويين يردوا الروح، وبرضه هقولك عملوا مشكلة ليه .. إمبارح عم موافي وأنا بديله الدوا أخدت بالي أنه...

فتح باب الغرفة بعنف قطع الكلمات على لسان صابرين التي ارتجفت

ما أن فُتح الباب فاستأذنت بسرعة دون أن تكمل ما تقول، نظر أنيس لجده متسائلًا:

- كانت بترغي في إيه دي؟

دفع سمير أنيس حتى يفسح مجال وركض مسرعًا لجده يحتضنه ويغرقه بالقبلات، ابتسم درويش وربت على كتف حفيده ليُعطيه مجالًا للتنفس، فَهِم سمير مقصد جده وابتعد فورًا:

- خنقتك يا حبيبي، آسف معلش أعمل إيه أصلي بحبك، وحشتني من بالليل لحد دلوقت.

نظر أنيس لجده نظرة ذات مغزى وهو يقول:

- بالراحة يا سمير، ما أنت عارف أن درويش بيتخنق من الحب الزيادة، بيحبه حبة حبة وزيّ المثل ما بيقول حبة حبة تزيد محبة" .

ابتسم درويش لكن ابتسامته لم تصل إلي عينيه وهو بيقول:

- المثل الصح بيقول: "خف حبة تزيد محبة".

ثم اصطنع الضحك وأكمل:

- هفضل اعلم فيكم لحد إمتى يا ولادي؟ يلا وروني جايبين معاكم إيه.

ظل أنيس ينظر لدرويش نظرة صارمة دون أن يتحرك، أما سمير فأخرج بضع أشياء منها كتاب جديد، تهلل وجه درويش لأول مرة منذ الصباح، سأل سمير:

- أنت جبت لي كتاب وريني كده كتاب إيه؟

أجاب سمير بفخر :

- جبتلك كتاب حب في زمن الكوليرا، ده للكاتب الي أنتَ بتحبه وبُص كده هتلاقيه الطبعة الأصلية مش اللي بتتباع علي سور الأزبكية إيه رأيك بقى؟

في خارج الغرفة كانت صابرين تركض حتى وصلت لغرفة الاستشارة النفسية، طرقت الباب قبل أن تدخل مسرعة:

- بُصي بقى، أنا خلاص معدتش قادرة هو صعبان عليا آه بس كده كتير، أعصابي تعبت.

ضحكت هُيام من طريقة صابرين التمثيلية وهي تتكلم، أجلستها على المقعد المقابل لها ثم قالت:

- إنتِ اللي دماغك فاضية وخيالك واسع، عمالة تتخيلي حاجات محصلتش.

غضبت صابرين وقامت من مكانها وهي تقول:

- دماغي فاضية وخيالي واسع، تمام اتفضلي روحي له دلوقت وحاولي تتكلمي معاه أما نشوف هيحصل إيه:

قالت هُيام بثقة:

- أنا فعلًا كنت بظبط حاجة كده وناوية اروح له، واتكلم معاه عشان الحالة أللي هو فيها متزيدش عليه.

قالت صابرين بنفاذ صبر:

- والله ما حالة، دا مخاوي صدقيني...طيب روحي وشوفي بنفسك، وبعدين نقعد قعدتنا هنا تاني ونحكي بس بالنهار آه أنا مش ناقصة تلبيش!

قالت هُيام مستهجنة:

- مخاوي مرة واحدة بس يا بنتي بلاش تخلف، آه أنا عارفة أن الجن موجود ومذكور في القرآن الكريم بس يعني أي واحد عنده تهيؤات ولا نوع من أنواع (الشيزوفرينيا) نقول عليه مخاوي، ما أنا قعدت معاه كذا مرة شوفته بيكلم نفسه أكتر من مرة، بس لاحظت أن آخر مرتين كان كلامه مع نفسه قليل جدًا وده إن دل يدل على أنه بس مستوحد وأنتوا اللي أوقر الصراحة.

- جميل... آخر مرتين دول مش كانوا من أكتر من أسبوع؟!، اتكلمتوا ولا اتقابلتوا من وقتها؟ لأ طبعًا، إنتِ مكنيش موجودة يومها ولا سمعتي التكسير والزعيق اللي كان في الأوضة، إحنا كلنا اتلبشنا في مكانًا... محدش عرف يدخل من الخوف ومن ساعتها وهو طلب مني أحط على باب الأوضة ممنوع الزيارة وعدم الإزعاج وقافل على نفسه.

قامت هُيام من مكانها وتحركت بشكل خطوط مستقيمة في الغرفة ذهابًا وإيابًا وهي تقول:

- بُصي أنا سمعت اللي حصل ده من كذا حد، يعني أنا مش بكذبك بس أكيد في تفسير للي بيحصل، ممكن يكون كان فاتح الـVT ومعَلي صوته أو راديو لكن اللي بتقولوه دا بعيد عن الواقع أو حتى المنطق، كلنا واحنا صغيرين كبرنا واحنا بنسمع أسطورة النداهة، وأم رجل مسلوخة وغيرها وغيرها من الخرافات اللي أهلينا كانوا بيسمَعوها لينا عشان نخاف ومَنروحش البحر بالليل مثلًا، طيب تقدري تقوليلي النداهة راحت فين دلوقت؟ ما كل البلاد الساحلية شواطئها طول الليل عليها ناس ليه محدش طلعله النداهة المزعومة دي يا بنتي؟ دي كلها خرافات أنتوا اللي مخليين عقلكم يصدقها، عموما أنا جهزت له هدية حلوة هتعجبه وهروح اديهاله دلوقت بس أخلص الكام تقرير اللي في إيدي الأول.

قامت صابرين من مكانها متجهة لباب الغرفة:

- طيب اسيبك وأكمل لف على النزلاء، اديهم دواهم وبعدين أبقى أشوفك تحكيلي واحكيلك عن البلاوي اللي حصلت قبل كده، بس هسيبك تشوفي بنفسك الأول عشان متغَلبنيش وتصدقِيني علطول يلا سلام دلوقت.

خرجت صابرين من الغرفة وهي تهز رأسها وتقول:

- هي مش هتصدقني إلا لما تشوف بعينها يلا خليها تلبس بقى!

أنهت هُيام التقارير المطلوبة منها، حملت حافظة الشاي ولفة كبيرة وذهبت لغرفة درويش، ما أن اقتربت حتى سمعت درويش يُحدث أحد، طرقت الباب قبل أن تدخل مبتسمة:

-مساء الخير ازيّ حضرتك؟أنا لاقيتك مش بتنزل الجنينة قلت أطلعلَك الجنينة لفوق.

ثم رفعت يدها بحَافظة الشاي وهي تضحك وأكملت:

- كمان جبت لحضرتك هدية يارب تعجبك.

كل هذا ودرويش صامت ينقل نظره بين أنيس وسمير في توتر ولم يُجبها.

تنحنحت هُيام وقربت مقعد من سريره وقبل أن تجلس عليه قدمت الهدية لدرويش:

- يارب الهدية تعجبك متعرفش أنا تعبت ازايّ وأنا بجمعها لك.

مد درويش يده في صمت، أخذ الهدية ووضعها جانبه على السرير دون فتحها، قامت هُيام من مكانها وهي تقول:

*حضرتك بتحط الكوبيات فين؟عشان مجبتش معايا.

رأت أكواب موضوعة على المكتب، جاءت بكوبين وسكبت بها القليل من الشاي الساخن ذو الرائحة المنعشة.

- اتفضل.

مد درويش يده وهي ترتعش وأخذ منها الكوب ووضعه جانبه ثم قال لها:

- إنتِ نسيتي تحطي كوبيتين كمان لأحفادي أنيس وسمير .

تفاجأت بكلماته، لكنها تداركت الموقف، أتت بكوبان آخران وسكبت بهم القليل من الشاي.

- أنا آسفة جدًا مكنتش أعرف أن أحفادك هنا مخدتش بالي آسفة مرة تانية.

نظر أنيس لها وهو متكأ يسند رأسه على إصبعين من يده اليسرى، و يحرك الوسطى علي فمه مفكرًا، أما سمير فقد ابتسم لها، تنحنحت هُيام وأكملت كلامها:

- هو حضرتك مش هتشوف الهدية اللي جبتهالك ولا إيه؟

مازالت عيون درويش تتنقل ما بين أنيس وسمير، أنيس أشار له بيده بمعنى افتح وسمير حرك وجهه لأعلى وأسفل بمعنى موافق، فرفع درويش اللفة الكبيرة على ساقه الممدودة أمامه وفتحها، اللفة تحتوي على المجموعة الكاملة غابرييل غارثيا ماركيث ، بهت درويش عندما رآها فتحت عينيه على وسعهما رُغمًا عنه، تنحنح قبل أن يقول:

- بس كده كتير وكلفْتي نفسك.

- لا مش كتير علي حضرتك طبعًا، أنا جمعت كل الكتب المُترجمة للعربي من روايته ووصيت حد معرفة هيجيبلي الباقي اللي مترجمش، مُترجم بس على فلاشة وهبقى اطبعه لحضرتك كمان على ورق عشان يبقى سهل القراءة بالنسبة ليك.

قام أنيس من مكانه وجلس بجانب درويش ينظر للكتب بصمت، قال درويش:

- مفيش داعٍ لكل التعب ده، طبعًا شكرًا لذوقك بس أنا لو عوزت حاجة أحفادي بيجيبوهم؛ أنا آسف مش هقدر أقبل الهدية دي.

اصطنعت هُيام الحزن وقالت:

- كدا أنتَ هتزعلني وهمشي وأنا زعلانه منك، وبعدين أنا هتفاهِم مع أحفادك ماتقلقش.

نظر درويش لسمير الذي يشرب من كوب الشاي خاصته وجده منهمك في الكوب ولا ينظر إليه، نقل نظره لأنيس الجالس بجانبه، أنيس لم يحرك عينيه عنها، خاطبه درويش هامسًا:

- بتقول عايزة تتفاهم معاكوا لو ممكن تديها فرصة؟

ابتسم أنيس ساخرًا وهو يقول: بس كده أحلى فرصة.

وضع سمير كوبه محدثًا صوتًا عاليًا على الطاولة المجاورة لهُيام، التي قفزت في مكانها بفعل المفاجأة، نظرت لكوب الشاي الفارغ مُتسآلة من شربه، نظرت لدرويش لعلها تجد إجابة عنده ترضيها، قال بإحراج:

- معلش سمير بيحب يهزر مع البنات الحلوة.

- سمير مين؟!

- حفيدي.

ابتلعت ريقها بصعوبة: هو موجود معانا؟

أنا قلتلك أحفادي معانا سمير جنبك وأنيس جنبي.

بدأ أنيس يلعب بالكتب يقذفها لأعلى حتى تسقط على السرير، يقلب في صفحاتها وأخيرًا قذفها في اتجاه هُيام، التي وقفت بسرعة لتلافي الكتاب، تمالكت نفسها بصعوبة وسألت درويش:

- هو زعلان مني في حاجة؟ أقصد أنا ضايقته في حاجة؟

لم يعرف درويش كيف يجيب عليها هل يخبرها الحقيقة أم ماذا؟!، تلكأ قليلًا ثم أخبرها:

- هو بيحب يهزر هو كمان، هو كده بيلعب معاكِ!

اصطنعت الضحك وهي تقول:

- آه هو طفل صغير يعني ماشاء الله ربنا يبارك...

قاطعها درويش: لا مش طفل هو بس هزاره كده.

بدأت دعابات أنيس تزيد دفعها لتجلس على المقعد ثم قام بجره، صرخت وقامت من عليه، لفها سمير ناحية وأخذ ينفخ في وجهها ويداعب شعرها، حاول درويش أن يوقف لعبهم بوهن مترجيًا إياهم أن يكفوا وأن هذا كاف لكنهم لم يسمعوه، جسد هُيام كله يرتجف في خوف، ركضت ناحية الباب فتحته وخرجت مسرعة.

نظر أنيس لجده نظرة ذات مغزى وهو يقول:

- شوفت ازاي مستحملتش هزار دقيقتين!

(٦)

خريف ١٩٧٥.

استيقظت اليوم أشعر براحة غريبة، قلبي يخفق بشكل مختلف، كل خفقة ترسل ذبذبات لجسدي حتى يرتعش وفمي حتى يبتسم، لقطات أمس لا تُفارق مخيلتي أعيدها مرارًا وتكرارًا، نظراتها، بسماتها ولمسة يديها المرتعشة، أهذا ما يطلقون عليه الحب أم ماذا دهانِ؟!

استلمت نبطشيتي وأنا كلي طاقة ونشاط رُغم عدد ساعات نومي القليلة، مر الصباح دون أن أرى رئيسة التمريض سألت عنها أخبروني أنها أخذت إجازة مرضية ولن تأتي اليوم.

حسنًا إن الغد لناظره قريب، انتظرت مريض أمس أن يأتي لأغير على جراحه وأسأله عما حدث لكنه لم يأت، حقيقة لم أكترث استغليت أن العمل اليوم خفيف وذهبت لـ(عنبر ٨) حتى أتناول الإفطار معها، أحضرت بعض الساندويشات و كوبان من الشاي وذهبت لأراها.

جلست على طرف سريرها ناولتها الشاي ثم فتحت الساندويتش وأعطيتها إياه، أخذتهم بخجل وأخبرتني أنها لم تتناول إفطارها بعد، وأنها كانت تشعر بالجوع فتساءلت أين أهلها؟ لما لا أرى أحد منهم هنا؟، أطرقت قليلًا ثم أجابت بإختصار بوجه أحمر بفعل الخجل:

- أن لديهم مشاغل وأنها مكتفية بي ولا تحتاج أحد آخر معه.

خفق قلبي لتلك الإجابة لم أتوقعها منها، فخجلها شديد ومع ذلك تستطيع بأقل الكلمات أن تأثر قلبي أكثر كل مرة، لم أُرِد أن أزيد عليها، ألقيت عليها نكتة فضحكت ورجع لون وجهها طبيعي.

شعرت بنظرات المرضى المُحيطين بنا تخترقنا، لم أشعر بالإحراج لكن لا أريد أن يضايقها أحد؛ فقلت بصوت عالٍ أنني أنتظر أن يتم شفاؤها حتى أتقدم لخطبتها.

لا أعلم لما قلت ذلك لكنني كنت أعنيه وشعرت أن الكلمات تخرج من قلبي، تهلل وجهها بسعادة وقالت أنها تنتظر هذا اليوم هي الأخرى، لكن فجأة غيَّم وجهها وطلبت مني أن أذهب لأُكمل عملي، لا أعرف هل هذا بسبب رد فعل المحيطين بنا أم ماذا؟ ولكنها أصرت فنفذت ما أرادت علي وعد أن نلتقي ليلًا كعادتنا.

ذهبت للاستقبال لأرى إن كانت هناك حالة جديدة، فقابلت زميلي البشوش الذي عرفني على طبيب آخر يكبُرنا في السن، أخذ يتحدث معي عن أشياء كثيرة لكن كان مهتم بحياتي الخاصة جدًا لا أعرف لما؟! ، ثم سألني عن تكرار ذهابي لـ(عنبر ٨) ونومي هناك، طريقته في الكلام كانت مريحة جدًا دفعتي لأقص عليه كل شيء عن هُيام من أول يوم وحتى الآن، ابتسم بحذر ثم قال لي: أنه يجب أن يذهب ليرى إحدى المرضى، وأن لابد وأن نكرر لقاءنا مرة أخرى، قبل أن يذهب ربت على كتفي طالبًا مني الحذر!

لم أفهم ماذا يقصد؟ ولم أكترث فأنا كنت أريد أن أفض ما يعج بصدري لأي أحد على أمل أن يقل الضغط داخل قفصي الصدري، وكان هو أمامي فتكلمت لكن حقيقة لا أكترث كثيرًا لأفهم ما يقصد.

مرت بضعة أيام وأنا أستيقظ على المقعد بجانب هُيام نتناول إفطارنا سويًا، أذهب لأستلم عملي ثم أعود مساء لنتسامر قليلًا قبل أن أنام.

اليوم حضرت رئيسة التمريض بعد أن انتهت من إجازتها المرضية، قابلتها مبتسمًا مداعبًا إياها أنها تأخرت علينا، وقد افتقدناها لكنها قابلتني بوجوم وبادرت تسألني عما أشيع عنها أنها ساعدتني مع حالة في اليوم الذي خرجت به مبكرًا من المشفى، ثم أخبرتني أنها لم تفعل وتركتني وذهبت، لما تنكر أنها ساعدتني؟

هذا أمر مُحيِّر جدًا، أنا أريد أن أشكرها علي مساندتها لي، فلما هذا الغضب ؟!

بدأت ألاحظ أن الجفاء في معاملة زملائي والتمريض أصبح جليًا، لا أستطيع القول أنني لا أكترث لأنني أفعل لقد اعتدت على الوحدة ولكني لا أريد أن أشعر بالنبذ مرة أخرى!

في المساء أحضرت لعبة الورق وذهبت للعب مع هُيام شيء ما يسلينا ويُغير الجو العام فلقد لاحظت شحوب وجهها مؤخرًا و حالة السرحان التي أصابتها كأن شيء ما يشغل بالها، حاولت معها مرارًا لأعرف ما بها؛ فلا تخبرني لذا قررت أن أُغير الجو العام فمن الممكن أن يكون جلوسها في المشفى أرهقها نفسيًا.

ما أن رأت اللعبة، حتى ضحكت وأخبرتني بخجل أنها لا تعرف كيف تلعب، قلت لها:

- "ليست مشكلة سأعلمك لعبة البصرة. "

تعلمتها بسرعة وأخذنا نلعب ونضحك، أخبرتها أن علاجها قارب على الانتهاء، وجُمت قليلًا وقالت بحياء:

- لا أريد أن أشفى تمامًا حتى لا أتركك وأذهب، ابتسمت لها مطمئنًا إياها أنها مجرد أن تخرج من المشفى سوف أذهب وأطلب يدها من والدها؛ فأنا أصبحت لا أستطيع الاستغناء عنها، ثم مِلت عليها قليلًا وقلت لها: "أحبك".

وضعت يديها علي وجنتيها تداري لونهم القرمزي، ونظرت بحياءٍ لأسفل وهي تقول: "وأنا أحبك" ، أمسكت صدري بيدي حتى لا يخرج قلبي المهتاج منه، ذبت بفعل تلك الكلمة، قربت يدها لفمي وقبلتها قبلة طويلة ثم نظرت لعينيها وتمنيت لها نومًا هنيئًا، لابد أن أتمالك نفسي لذا فالنوم أفضل حل، فعقلي يخبرني أن أفعل أشياء وأشياء، اصمد ياقلب قريبًا ستصبح لك.

اقترب آذان الفجر فنمت ككل يوم في الأسبوعين الماضيين على المقعد جانبها وأرفع قدمي على سريرها أحلُم ببيْتنا وحياتنا سويًا.

قابلت اليوم الطبيب الذي عرفني عليه زميلي البشوش الطبيب "عماد"، تبادلنا أطراف الحديث قليلًا، ثم بدأ يسألني مرة أخرى عن هُيام وما يحدث معنا، ابتسمت وأخبرته أنني سعيد معها لكن لا يوجد جديد، أطرق قليلًا ثم سألني عن عائلتي ولما لا آخذ أي إجازة فمنذ أن قدمت للمشفى وأنا أعمل كل يوم، اندهشت لاهتمامه بتفاصيل حياتي ومعرفته بجدولي!

نعم أنا لا أرغب في الخروج من المشفى والذهاب للمنزل، لا أريد أن أرى أي فرد من عائلتي بل الأحرى أنهم هم من لا يريدون لقائي، لكن كيف أخبره بذلك وأنا لم أره سوى مرتين؛ هل أخبره عن عائلتي حقًا؟، عن سبب تسميتي كما يزعمون، عن الوحدة التي أعيشها وأنا معهم، حياتي التي عشتها وأنا لا أعيشها حقًا؟! ، لا لا أرغب في ذلك، تركته وذهبت متعللًا بمريضٍ ما.

كنت أشعر بالضيق لا أرغب حقًا في العمل ولم يكن هناك حالات تحتاجني فذهبت لأرى هُيام، رؤيتها ستُريحني أكيد ، دخلت (عنبر ٨) وجدت رجل كهل ينام على سرير هُيام، ناديت علي الممرضة أسألها عن هُيام، نظرت لي بعينٍ فارغة، قلت لها الحالة التي تنام على هذا السرير أين هي؟!

أخبرتني أن السرير فارغ لم ينم عليه أي أحد طوال الشهرين الماضيين سوى بعض المرضى النهاريين، ولا يبيت أحد هنا على هذا السرير.

ماذا...؟ ماذا تقول، لم ينم أحد هناك خلال شهرين كيف هذا؟! وهيام أين تكون؟

لم تُجبنِ بل هزت كتفها وتركتني وذهبت، شعرت أن عقلي توقف عن التفكير فسألت السيدة التي تنام في السرير المجاور لها، أخبرتني أن لا أحد ينام على هذا السرير سواي أنا ليلًا آتي بمقعدٍ، وأضعه أمام السرير الفارغ وأرفع قدمي عليه وأنام بعد أن أتحدث مع نفسي قليلًا!

ما هذا الهراء؟ هل يتفقون عليَّ؟ لا أصدق هذا، حسنًا التقارير كل يوم كنت أكتب تقرير عن تقدم الحالة وأضعَه مع باقي التقارير الطبية للقسم، سأذهب لأراها، أخذت الملف المعني قلبت فيه، لم أجد أي تقرير عن هُيام وما كتبته عنها، ناديت علي المسؤولة هنا وسألتها أين التقارير التي كتبتها وأين ورق الوصفات الطبية التي كتبتها للحالة؟!

نظرت لي بشفقة وأخبرتني أنها وضعتهم كلهم في ملف مختلف وأعطتني إياه ، فتحته ونظرت فيه ثم قذفته بعنف على المكتب وأنا أسألها بحدة وغضب عن معنى هذا، لماذا تقاريري ووصفاتي لتلك الحالة فقط موجودة في ملف مستقل؟!، في تلك اللحظة دخل الطبيب عماد وحاول تهدئتي ثم عرفني بنفسه بشكل كامل هو طبيب الأمراض النفسية والعقلية في المشفى!

ماذا طبيب أمراض نفسية وعقلية هل أنا مجنون؟! الآن فهمت معنى نظرات زملائي لي، فهمت لما تتعامل معي الممرضات بهذا الشكل؟!، هم يظنون أنني مجنون.

لا، لن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى ، دفعت الطبيب في صدره وذهبت للاستقبال، أبحث في أسماء المرضى عن المريض الذي عالجته وساعدتني رئيسة التمريض في علاجة ثم أنكرت، لن أدع ما حدث يتكرر مرة أخرى.

(٧)

خريف ٢٠١٨ .

دخلت هيام غرفتها وأغلقت الباب بعنف وهي ترتجف، عقلها لا يستوعب ما حدث، أخذت تعيد المشهد في عقلها مرارًا.

كنت أجلس على المقعد بجانب السرير، الكوب وُضع بعنف، الكتب تُقذف في الهواء ثم نحوي، أحدهم يدفعني لأجلس، أحدهم يجر مقعدي، أحد آخر ينفخ في وجهي ويداعب شعري!

صرخت:

"لا مش ممكن اللي حصل ده لا ، إيه هي صابرين طلع عندها حق؟ لا لا لا لازم يكون في تفسير منطقي للي حصل ده.

فتحت أحد أدراج مكتبها وأخرجت شريط دواء وأخذت منه حبتين، حدثت نفسها مرة أخرى:

"دلوقت أهدى واعرف أفكر يمكن في حاجة عقلي مركزش عليها، يمكن أكون كان بيتهيألي، فعلا كان بيتهيألي كلام صابرين أثر فيا...

فتحت صابرين باب الغرفة فصرخت هيام فزعة، ضحكت صابرين:

-إيه مش كان خزعبلات وأساطير اتربينا عليها؟، اجمد كده يا وحْش أنتَ.

لسه في المرحلة الأولى!

نظرت هيام بغيظ لصابرين،التي تقدمت نحوها وأعطتها كوب ماء ثم ربتت على كتفها:

- اهدي إنتِ بس، واحكيلي حصل إيه؟

- ما هو أنا مش عارفة حصل إيه، أنا مش فاهمه حاجة عقلي بيقولي حاجة واللي شوفته حاجة تانية... بس لأ أكيد في تفسير منطقي.

- سيبك إنتِ من التفسير المنطقي، وقولي حصل إيه من غير تحليل، قولي زي ما حصل.

قصَّت هُيام ما حدث لصابرين وهي ترتعش وتقطع الغرفة بخطوط مستقيمة إيابًا وذهابًا، قامت صابرين من مكانها وأمسكت هُيام من كتفيها:

- كفاية أنا اتخيلت اقعدي خلاص اللي حصل حصل.

حركَت هيام كتفيها للأمام والخلف حتى تتحرر من قبضة صابرين:

- مش هعرف أهدى لو قعدت، أنا كده بعرف أرتب أفكار واطلع ال (negative energy) من جسمي، ها إيه رأيك ومن غير ما تقولي لي مخاوي دي؟

ضحكت صابرين:

- عندك تفسير تاني؟ ، يا دكتورة أنا هنا بقالي خمس سنين في الدار من يوم ما جيت والأوضة بتاعت دكتور درويش خط أحمر ومحدش عايز يتابعه طبعًا، لأني كنت الجديدة مكنتش أعرف، أدوني الأوضة دي ضمن الأُوض اللي أنا مسؤولة عنها، في الأول حصل معايا حاجات شبه اللي حصلت دي، طبعًا عيطت وخوفت وقلت مليش دعوة بالأُوضة دي نهائي، بس دكتور (رفيق) الله يرحمه كلمني وطلب مني بشكل شخصي إني أهتم بالأُوضة دي بالذات وكان بصراحة بيديني شهرية عشان يضمن ده، وبقيت بهتم بيه شوية بشوية لاقيته راجل طيب وغلبان حبيته جدًا، بس في أوقات بيبقى الوضع زي ما شوفتي كده، في الأوقات دي مبعملش غير الواجب بتاعي وبس، لكن لما طلبتي مني إني أساعدك مع الحالة دي بالذات ولأني بحبه ماقدرتش أقول لأ ، طبعا تقبُلي للي بيحصل اختلف معدتش بعيَّط وبجري لكن ده ميمنعش إني لسه بقشعر وبهرب لما بحس أن في كهربا مش طبيعية في الجو!

رسمت علامات الدهشة على محيا هُيام: دكتور رفيق ... إنتِ تعرفيه؟

ابتسمت صابرين:

- آه أعرفه والظاهر كده إنتِ كمان تعرفيه.

- آه أعرفه !

صمتت هيام تفكر فيما يحدث وتحاول ربط الخيوط ببعضها البعض، قطعت صابرين شرودها: أيوه وبعدين؟

نظرت هيام بعدم فهم:

- يعني تعرفيه منين؟ قالك إيه عشان تيجي؟... كده يعني.

- دكتور رفيق صديق لوالدي من زمان أنا حتى مش عارفه من إمتى؟ يمكن من قبل ما اتولد ، بس كنت بشوفه على فترات متقطعة بسبب طبيعة شغله، وفي يوم كان بيزورنا سألني إذا كنت بدور على شغل وإن عنده مكان مثالي هيسَاعدني في توفير وقت لكتابة رسالة الدكتوراه بتاعتي بس كده.

- وطبعا وصاكِ على دكتور درويش.

- آه...ومش كده وبس، دا كمان طلب مني إني أتقرب منه حتى لو في حد بيحاول يبعدني عنه، وساعتها أنا استغربت مين اللي ممكن يعمل كده وسألته، قالي كله بأوانه وعرفني عن الحالة بتاعته بس بشكل علمي، مش الجنان الرسمي اللي حاصل هنا.

قامت صابرين من مكانها، وقفت بجانب هُيام، ربتت على كتفها:

- كدا مفيش قدامنا غير أننا ننفذ وصية المرحوم بس المهم ننفذها ازاي؟!

- سيبيني افكر وارتب أفكاري وبعدين نتكلم تاني.

مازال درويش يجلس على فراشه ينظر بعين شاردة للكُتب الملقاة على الأرض، يفكر بكم الاحتمالات لما سيحدث بعد الآن، يتحسر على كم الأوقات السعيدة والمشوقة التي كان من الممكن أن يعيشها بحضن تلك الكتب ومع هُيام.

أنيس يجلس على المقعد الذي قربته هيام من السرير، ينظر شذرًا في عين درويش الذي لا ينتبه له بل غارق في أفكاره ورثائه لنفسه، سمير يلعب بكرة يقذفها لأعلى ويمسكها محدثًا صوت إرتطام عالي، غضب أنيس منه وصاح فيه أن يكف عما يفعل، قفز سمير على السرير محتضنًا درويش الذي قفز هو الآخر بفعل المفاجأة:

- عجبك كده يا جدو مش عايزني ألعب.

نظر له درويش بعدم فهم فتدخل أنيس:

- درويش مش معانا هنا، متسألوش سيبه يكمل سرحان في أحلام هو عارف إنها مش هتتحقق.

- أحلام إيه؟!

نظر سمير مستفسرًا من جده، قاطعه أنيس:

- الظاهر أنك صدقت أنك أنسي ونسيت أنت إيه؟!

نظر له سمير بغضبٍ وصاح: أنا مش أنسي ولا عمري هكون ولا عايز أكون أنت سامع؟!

- المهم أنت اللي تبقى سامع.

نظر كلاهما لدرويش الصامت فلقد تعلم منذ زمن أن يظل صامت في تلك الأوقات، حاولا اختراق ذلك الصمت، ذلك الجدار، نبتت حبيبات العرق على جبينهم، أنيس غضبه يزيد، سمير يضغط على أسنانه بقوة حتى يستطيع التركيز دون جدوى ، بعد وقت لم يكن قليل استسلامًا وقال أنيس غاضبًا:

- براحتك بس أوعى تنسى العهد!

(٨)

خريف ١٩٧٥ .

أكاد أُجن، هل ما يحدث حقيقي؟ هل عدت لتلك الأيام مرة أخرى؟

لقد استطعت أن آخذ عنوان المريض من الاستقبال رُغم علمي أن هذا العنوان من الممكن أن يكون غير الصحيح فكثير من المرضى يعطوننا معلومات غير صحيحة أو غير دقيقة بفعل الألم أو عدم الاهتمام.

خرجت من المشفى ذاهبًا للعنوان وأنا شبه مُغيب، عقلي يرفض ما يقولون وقلبي عالق لا ينبئي بشيء، ينتظر مثلي حتى يتأكد، وصلت للمكان وبعد بحث صغير استطعت أن أجد الرج ، حاولت أن أبدو طبيعي، اصطنعت ابتسامة رافعًا حقيبة الغيار، استقبلني الرجل "عم حسنين" بدفء لكن يشوبه شيء ما لم أدرك في البداية، شرعت أغير على جراحه فسألته لماذا لم تعد لأغير علي جرحك مرة أخرى؟ أبعد ذراعه المصابة عني، و أجاب سؤالي بسؤال:

- "هل من المعتاد أن تذهب للمرضى في بيوتهم لتغير على جراحهم؟

لا أعتقد ذلك لذا فلتخبرني لماذا أتيت؟"

صمت للحظات أفكر هل أخبره بالحقيقة أم ماذا؟ لكنه بادرني بالكلام:

- " تريد أن تعرف عن هالتك أليس كذلك؟"

هالتي؟ ماذا يقصد بهالتي؟ نظرت له بعدم فهم، فابتسم وسألني: لما أتيت؟، كنت صريح معه وسألته مباشرةً عما حدث في ذلك اليوم، هز رأسه بالإيجاب وأخبرني أنه لم يرَ أحد ما بجانبي لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك أحد!

بهت وجلست مكاني على الأرض أحاول استيعاب ما يحدث، لا يمكن أن يكون كل شيء وهم، مشاعرنا ، لقاءتنا ، لمسة يديها، رائحتها التي تشبه الزهور اللافندر ، كل هذا من نسج خيالي ، لا لا يمكن ، لا بد من وجود تفسير.

جلس بجانبي، ربت علي كتفي بحنان، طلب مني أن أخبره عما يلج بصدري، بكيت...

نعم بكيت فلم أعرف كيف أبوح بمكنوني سوى بالبكاء، لا أدري كم مر عليّ وأنا أبكي ولا أدري هل أبكي عليها أم علي نفسي؟ ، هل ما يؤرقني أن يقال عني ما اعتدت سماعه في صغري، ذلك اللقب السخيف أم لأن قلبي يحرقني بفعل الشوق والحسرة؟

اعتدلت في جلستي ماسحًا عيني ثم وقفت، صافحته وذهبت، صاح بصوت قوي يخبرني أنه سينتظرني مرة أخرى، لم أهتم حتى بالتلويح له بل سرت في طريقي أتخبط بين الناس، أرى وجوههم جوفاء فارغة بلا ملامح، أترنح كسكير أفرغ كل القنان.

جلست على كورنيش النيل أنظر لمياهِه وأناجيه ليرسم لي صورتها على صفحاته ، أ تُراني جننت؟!

تمنيت أن أعود لأسبوع مضى كي أشبع منها، أشتم رائحتها حتى الثمالة، لا أفارقها أبدًا حتى أذوب فيها.

أغمضت عيني أتخيلها، عينيها، شفاهها ، يديها الرقيقتين، صوتها العذب، أوقاتنا سويًا، خجلها عند اللقاء، جزعها عند الوداع.

أجمل من رأت عيني، أفتقدها ولم يمر سوى يومًا علي بعدها عني، أنا لا أصدق ما يقولون أنتِ حقيقة، لقد لمستُكِ ، شممتكِ ، أطعمتكِ وأطعمتني، فكيف تكونين وهم؟!

فجأة داهمتني رائحة أتلهف عليها ، فتحت عيني سريعًا، رأيتها واقفة أمامي برداء أبيض طويل وواسع، يطير بفعل الهواء حولها كأنها حورية ماء أو ملاك باسط جناحيه.

في عينها نظرة حزن، قفزت واقفًا أمد يدي لها، أبعدت يدها عني وابتعدت خطوتين، طلبت مني أن لا أقترب أكثر منها، كيف هذا؟ أنا أموت شوقًا للمستها، قلبي يخبرني أن لا أُطاوعها وأقترب منها محتضنا إياها حتى أدخلها بين ضلوعي، أخلاقي تمنعني أن أفعل ما لا تريد، التزمت مكاني، سألتها بلهفة أين كانت؟ ، أين ذهبت؟ ، كيف لم يَرها سواي؟ ، ما حقيقة تلك المزاعم والعديد من الأسئلة دون أن أخذ نفسي.

انتظرت حتى انتهيت من أسألتي ثم قالت لي: أنها لا تستطيع إخباري أي شيء سوى أن لا أبحث عنها، وأن أصدق دائمًا فؤادي وأستمع إليه، لا أدع من حولي يعبثون بعقلي؛ فأنا من عشت ما عشنا وهو حقيقة لا يدركوها بعد، ثم صمتت لوهلة قبل أن تطلب مني أن أغلق عيني مرة أخرى لأنها تريد أن تقول لي شيئًا وتخجل مني، فعلت مثل ما طلبت، سمعت همسها داخل رأسي تخبرني: أن لا أنساها وأنها تحبني فإن كنت أحبها حقًا؟ فَلأبحث عن اسمها ، اسمها فقط.

شعرت بقلبي يكاد ينفجر داخل صدري، أطرافي مخدرة، ثقل في رأسي، أريد أن أفتح عيني لكن لا أستطيع، أنفاسي تتقطع ثم غبت عن الوعي.

فتحت عيني لأرى نفسي نائمًا في المشفى سمعت حولي الممرضات يتحدثون عني وأني لم أستيقظ بعد، رُغم مرور يومان!

هل كنت نائم لمدة يومان؟هل كنت في غيبوبة؟ ماذا حدث؟!

تنحنحت قليلًا حتى أستطيع إخراج صوتي، ناديت على إحدى الممرضات، ابتسمت لي علي غير عادة، سألتني عن حالي ثم ذهبت لإحضار جهاز الضغط ونادت علي الطبيب.

دخل عليّ زميلي البشوش مبتسمًا كعادته، سألني عن حالي وبعد معاينة معتادة ربت على كتفي وأخبرني أنه اطمن عليَّ وأنني بخير.

سألته عما حدث وكيف انتهي بي الحال هنا، أخبرني أن بعض المارة وجدني مغشيًا عليّ في الطريق، فاصطحبني للمشفى وأنه مر عليّ يومان وأنا نائم!

- نائم كيف هذا ؟ ألم أكن في غيبوبة ؟!

- "لا لست كذلك بل نائم" ثم ضحك قليلًا وأكمل:

- "من المؤكد أنك كنت مرهق جدًا لتنام يومان متواصلان دون طلب دخول الحمام أو الأكل."

شعرت بالإحراج والدهشة أحاول تفسير ما يحدث معي، كيف أنام يومان متواصلان؟! لماذا أشعر بهذا الهدوء؟ داخلي راحة غير مبررة! شعور بسلام!

جلست علي السرير أحاول أن أتذكر ما حدث، لقد ذهبت لعم حسنين ثم خرجت من عنده أسير في الطرقات، جلست قليلًا على مقعد أمام النيل أُطالعه و..... لقد رأيتها... نعم... رأيتها، وأخبرتني ألا أبحث عنها لكن أبحث عن اسمها، أكدت لي أن ما عشناه قد عشناه لكن لا أبحث عنها فقط اسمها؟ الناس لا يدركون ما صار بيننا ولا أبحث عنها، فقط اسمها!

ثم صرخت بصوتٍ عالٍ: "عم حسنين "!

لم أشعر بنفسي سوى وساقي يقوداني لمكان عم حسنين الذي استقبلني مبتسمًا كأنه كان ينتظرني!

"عم حسنين " رجل خمسيني أبيض الوجه ذو وجنتان ورديتان، قصير القامة، عيناه إحداهما عسلية والأخرى خضراء، تفاجأت من نفسي لأنني لم ألحظ عيناه من قبل!

بدا علي وجهي ما أفكر به، ضحك عم حسنين " عاليا قائلًا:

- " لابد وأن عيني تلفت نظرك."

شعرت بالإحراج فتَنحنحت وأجبته أنني لم ألحَظها من قبل وهذا ما شغل تفكيري.

- "لأنك لم تعد كما أنت فليس كل من حولي يستطيع رؤية اختلافهما."

لم أفهم شيئًا مما قال، وسألته عن مقصده فأجاب سؤالي بسؤال آخر:

- "كم يومًا مر عليك وأنت نائم؟!"

كيف عرِف أنني نمت أيام؟! هناك شيء غامض يحيط بذلك الرجل، وعلى الرغم من ذلك أشعر بالارتياح لمجرد الجلوس معه!

لا أعرف إن كان يستطيع أن يقرأ أفكاري أم أن وجهي يفضحني ويبث ما يدور في خاطري؟

- "مر يومان أليس كذلك؟"

لم أجبه فضحك وهو يقول:

- "لا تخف أنا مثلك مررت بكل تلك الأشياء لذا أعرف ما يحدث معك، من الممكن أن نختلف في ترتيب الأحداث، أو أن تخونني ذاكرتي ولكن أستطيع أن أتوقع أيضًا ماذا يحدث معك!"

رفعت كفي أغطي وجهي وعيني، تلك العادة دائمًا ما تساعدني علي التفكير، أخذت نفس عميق أحاول تهدئة أفكاري ، أنزلت يدي ونظرت إليه لأجده ينظر إليَّ مبتسمًا ثم قام من مكانه وأقبل عليّ ، ربت على كتفي قائلًا:

- "لابد وأنك لم تأكل منذ يومان علي الأقل، هيا لنأكل أولًا ثم نتحدث بعد أن تهدأ عاصفة أفكارك."

سرت كالمغيب يسوقني بمنتهى السلاسة، جلسنا نتاول طعامنا كان شهيًا جدًا أو كنت فعلًا أتضرع جوعًا، أنهيت كل ما وُضع أمامي، شعرت بشيء مألوف في هذا الطعام كأنني تناولته من قبل به حلاوة غريبة، أو رائحة اعتادها أنفي.

بعد تناولنا الطعام جلسنا في الشرفة، بدأ يتكلم عن تاريخ الحي الذي يسكنه، عن العمارة القاطن بها، عن أسباب تسمية كل شارع، العديد من الأشياء ثم سألني بغتتًا:

- "أتريد أن تعرف عن هالتك؟"

في الحقيقة لا أريد أن أعرف ، أريد إجابة عما يحدث معي تلك كانت كلماتي، أماء برأسه قائلًا:

- "لابد أن تعرف عن هالتك حتى تفهم ما يحدث معك يا بني ، لكل منا يا بني طاقة روحانية تختلف من شخص لآخر، تلك الطاقة تصنع هالة حولنا في بعض الأحيان ومع بعض الأشخاص تزيد تلك الهالة فتجعل صاحبها يضيء مثل القمر البدر في ليلٍ صافٍ من الغيوم."

حركت رأسي يمينًا ويسارًا مع قلب في شفتي بمعنى لا أفهم لكن ما كنت أقصده لا أكترث، أكمل عم حسنين كلامه:

- "تلك الهالة الروحانية تتخطى حدود الزمان والمكان، تستطيع بها أن تتواصل روحانيًا مع الأرواح أو الكائنات الأخرى التي تعيش حولنا ولا نراها!"

رفعت كفي مرة أخرى أغطي عيني ووجهي، أحاول إدراك ما يقول، تنهدت وسألته مباشرة عما يقصد فأنا مُجهد جدًا لا أستطيع ترتيب أفكاري.

سألني عن طفولتي، تجهمت فأنا لا أحب التحدث عن تلك الفترة أبدًا ، أخبرته بذلك ابتسم قائلًا:

" لم تصبح مستعدًا بعد، حسنًا... فلتذهب الآن ولكن حذاري أن تكتب العهد وأنت لا تعرف عن نفسك جيدًا!"

(٩)

خريف ٢٠١٨ .

جلس درويش أسفل شجرته المعتادة ممسكًا بقلم وورقة، يخط بها شيء وهو شارد، اليوم لم يأت أنيس وسمير كعادتهم، ظل درويش يفكر في السبب؛ فهُم لم ينقطعوا عنه أبدًا من قبل، شعوره كان مزيج من القلق والراحة، بداخله يقين أنهم سوف يأتون أو من الممكن أنهم موجودين فعلًا ولكن حجَبوا أنفسهم عن عينيه ليُراقبوه في صمتٍ محاولين اختراق أفكاره كالعادة، تنهد درويش تاركًا الورقة والقلم يسقطان على الأرض أسفل مقعده، التقطت هيام الورقة والقلم، قرأت ما بها بصوت مسموع:

- "أنا في الظلام أحتاج لمن يضيء لي الطريق لأخرج إلى النور!"

تنبه درويش علي صوتها، رفع عينيه لينظر لها بُهت مما رأى، أغلق عينيه وحرك رأسه يمينًا ويسارًا كأنه ينفض عنه شيء، فتح عينه مرة أخرى ينظر بجزعٍ ، جلست هُيام جانبه واضعة الورقة والقلم جانبها على المقعد:

- تسمح لي أقعد معاك شوية يا دكتور؟

نظر درويش حوله في قلق ثم وقف قائلًا: أنا تعبت وعايز أرجع أوضتي عن إذنك.

أمسكت هيام يديه تمنعه من الذهاب:

- استنى لو حد المفروض يمشي يبقى أنا ...أنا آسفة على إزعاجك، بس صعبان عليا الوحدة اللي حضرتك فيها، عايزة اساعدك أو على الأقل أبقى جنبك عشان متبقاش لوحدك.

أنزل يدها الممسكة بيده برفق:

- عارف بس إنتِ شوفتِ بعينك، وأنا مش حابب إنك تتِإذي بسَببي، إنتِ لسه صغيرة وقدامك العمر كله تعيشيه سعيدة.

- وحضرتك مش من حقك تكون سعيد؟!

تنهد ولاح شبح ابتسامة على محياه :

- كنت في يوم سعيد جدًا، سعادة تكفي الدنيا كلها، أنا راضي بيها ومش عايز أكتر ، دلوقت سيبيني أمشي قبل فوات الآوان عن أذنك.

ذهب درويش في طريقه لغرفته، يسير بخطوات وئيدة، محني الظهر، يتنهد بكل خطوة حتى دخل مبنى السكن وغاب عن عينيها.

أخرجت هيام هاتفها المحمول من جيب معطفها:

- خلصتي؟ خلاص... اخرجي بسرعة هو راجع الأوضة!

دخلت هيام غرفتها لتجد صابرين تنتظرها وعلى وجهها نظرات استمتاع، غمزت لهُيام قبل أن تقول:

- كله تمام يا ريّسة، مسحت الأوضة بمية وملح، ورشيت ملح في كل أركان الأوضة بس برضه مش بشكل واضح، وأكيد طبعًا حطيت على الشباك وعتبة الباب!

نظرت لها هيام في شك :

- أنا مش عارفة بهَاودك ليه؟ وبعدين إنتِ عاملة مِيكس من أساطير مصرية على أجنبية.

- لسه برضه بتقولي أساطير وبعدين أنا سألت الشيخ اللي في الجامع وقالي امسحي بمية بحر حادقة، ورشي ملح خشن وده يطرد الطاقة السلبية، وبسم الله الرحمن الرحيم يعني ميدخلوش المكان قمت افتكرت المسلسل بتاع الأخوات دول اللي بيحاربوا الشياطين اسمه إيه يا ربي ... آه اسمه (سوبر ناتشورال) كان الملح بيعملوه حاجز يحميهم قلت مش خسرانه حاجة أهو أجرب مدام كده ولا كده هحط ملح!

اقتربت هيام من صابرين ووكزتها في رأسها بخفة:

- الشيخ قالك مية بحر حادقة؟ طبعًا أنا معلقتش على التحديد ده بالذات لأن مافيش ماية بحر حلوة، لكن ما علينا إنتِ بقى جبتي ميه وملح وقلتِ يلا أهو كله زي بعضه.

- وأنا أجيب مية بحر منين دلوقت؟ أنا قلت اتصرف على ما جاري...

أنا مقلتلكيش أصل ليا جار شغال في موقف القاهرة إسكندرية، وصيته يملالي إزازة ميه من البحر، قالي يومين كده ويجيب لي، قلت في عقلي هستنى يومين إزاي؟ طيب اتصرف على ما يجيبها بس.

تنهدت صابرين وهي تختم كلماتها واضعة يدها علي صدرها تستريح فقد كانت تتحدث بسرعة ودون أن تأخذ نفسها وهو عادة لديها عندما تكون متحمسة.

جلست هيام علي مكتبها، تنهدت بشرود وهي تقول:

- بصراحة أنا مش مرتاحة للي بيحصل ده، حاسة أنه المفروض نعمل حاجة تانية بس إيه مش عارفة!

أخرجت الورقة التي كتبها درويش من جيب معطفها وقرأت مافيها بصوت عالٍ:

-"أنا في الظلام أحتاج لمن يضيء لي الطريق لأخرج إلى النور!"

نظرت صابرين بعدم فهم:

-*الورقة دي كتبها الدكتور درويش وهو قاعد بره، ممكن تكون اقتباس من كتاب بس مش عارفة ليه حستها أوي كأني أنا اللي بقولها!

طالت المحادثة بين صابرين وهُيام لمدة طويلة قبل أن تنتهي بذهاب هُيام لمنزلها دون الوصول لحلٍ أو معرفة ما يجب أن يفعلا؟

نامت هيام فور عودتها لمنزلها وبعد دقائق من نومها فتحت عينها علي صوت رقيق يناديها، رأت شات مبتسم عينيه تشع بريق، شعرت أنها رأت تلك الأعين من قبل، تلك القامة الطويلة ونحافة مع عبق السيجارة مزيج يألفة أنفها وعقلها، ذاك الشاب يناديها باسمها وهو يربت على شعرها بحنان، تفاجأت ورغم ذلك، لم يكن لها رد فعل بل ابتسمت له بالمقابل، ساعها الشاب في الجلوس على السرير، نظرت للسرير هذا ليس سريرها، إنه يبدو كسرير مشفى حقير وقاسي، نظرت لملابسها ليست تلك ملابسها، لماذا توجد ضمادة علي زراعها وتشعر بها على جانبها الأيسر كله؟! لكن الملابس تحجب الرؤية، رفع الشاب رأس هُيام بطرف إصبعه، ثم غمز لها قبل أن يقول:

-لقد أتيتكِ بعشاء لذيذ؛ فلنأكل أولًا قبل أن أغير على جراحك.

أخذ الشاب يتحدث عن أحداث يومه، أسلوبه، نظراته وطريقة ابتسامته بهم شيء مألوف جدًا تحاول إدراكه، لم تقاطعه قط، سمعته باستمتاع، تبادلا النظرات لوقت طويل وهي تشعر بدقات قلبها تزيد ، وخدر في أوصالها.

رفع الشاب ما تبقى من الطعام وأخذ يغير علي جراحها، كانت تبتسم رغم الألم، بعد أن انتهى رفع يديها ولثمها بشفافة، في تلك اللحظة جاء أحد ما من خلفه ممسكًا إياه من بطنه وسحبه للخلف قبل أن يطير في الهواء بفعل ضربة من رجل طويل القامة بشكل غير عادي، أسود الوجه، ذو عينين ناريتين، يرتدي ملابس حربية قديمة من العصور الوسطى

التف الرجل ينظر لهُيام بغضبٍ ثم أشار لبعض الجنود خلفه قائلًا بصوت جهوري:

-خذوها...

صرحت هُيام وهي تهز جسدها رغم الألم محاولة التخلص من قبضتهم المحكمة عليها، حملوها دون عناء وهي تصرخ وتنادي على الشاب:

-علي ..... علي!

شهقت هيام وهي تعتدل على سريرها واضعة يدها علي صدرها، تسعل بشدة، ضربات قلبها قوية وسريعة:

-بسم الله ... هو إيه ده؟ .. إيه الحلم ده؟ .. آه!

شعرت بألم في رسغِها ، نظرت له فإذا بآثار أصابع محكمة عليه!

انتظرت هُيام الصباح بفارغ الصبر، أخذت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا في خطوط مستقيمة في محاولة بائسة منها لترتيب أفكارها، من يكون علي؟ لماذا اقتحم أحلامها؟، أ تكون أضغاث أحلام؟ ، أم لها معنى آخر؟!

-وليه يكون ليها معنى تاني؟ ، استهدي بالله وقومي البسي لشغلك، الظاهر موضوع دكتور درويش دا قلب دماغك.

نظرت مرة أخرى على رسغها متسائلة: طيب والعلامات دي من إيه؟!

جلس درويش على سريره يطالع الجريدة، ثم وضعها في ملل قبل أن يقول بصوتٍ عالٍ:

- أنتم فين بقالكم كده يومين؟ أنا عارف إنكم مبتسبونيش أبدًا، وإن ممكن تكونوا حاجبين نفسكم عني، بس أنا مقدرش من غيركم ، يا ولادي وحشتوني.

لم يلق درويش رد علي كلماته، قام من مجلسه وخرج يتنزه في الحديقة، تبحث عيناه عن هُيام، رآها تدخل من الباب الخارجي للدار، انشرح صدره أراد أن يرفع يديه يلوح لها لكن خاف أن يكون أنيس وسمير بالقرب منه، فالتفت معطيًا إياها ظهره وجلس أسفل شجرته المعتادة.

رأت هُيام درويش وهو يجلس تحت الشجرة، ابتسمت وهمت بالذهاب إليه، ناداها صوت من خلفها، التفتت لترى من؟ لم تجد أحد، عادت تكمل طريقها، استوقفتها إحدى النزيلات تُلقي عليها تحية الصباح، وتسألها عن شيء ما ثم فجأة جحظت عيناها وقالت لها بصوت أجش:

- خليكي في حالك، وسيبيه في حاله أحسن لك!

ثم عادت مرة أخرى لطبيعتها وأكملت ماتريد قوله، شعرت هيام بالخوف للحظة ثم تذكرت كلمات دكتور رفيق عندما أوصاها على زميله ، وأخبرته أنها تخشى أن تخيب ظنه أو أن تكون غير لائقة بتلك المهمة.

- "لو بتخافي يا بنتي بلاش، بس لازم تصدقي أن قوتك جواكِ طول ما إنتِ قوية مفيش حاجة هتقف قصادك وإيمانك بربنا وبنفسك كفاية إنك تعدي من أي حاجة."

أخذت نفس عميق ثم أكملت طريقها لدرويش الذي غرق في أفكاره، ولم يشعر بها، جلست جانبه وأمسكت بيديه لا تعرف لما فعلت ذلك، نظر لها درويش ، بدا على وجهه المفاجأة صرخ باسمها هيام قبل أن يعانقها، تهدج صوته وهو يتحدث:

*حبيبتي إنتِ هنا؟ .... أنا مش ... مش مصدق ... إنتِ رجعتي؟!

أبعدها عنه قليلًا ينظر لها بعين دامعة، هيام تبكي هي الأخرى تشير له إيماءًا بمعنى:

نعم ، مازالت لا تفهم ما يحدث لما تصرفت هكذا ولما بكت حتى أوجعها صدرها، وأصبح تنفسها صعب؟

نظرت لدرويش الذي وضع يده على صدره قبل أن تختفي الكلمات من على لسانه:

إنتِ .... بـ...جد مش...مش حلـ....م

ثم سقط مغشيًا عليه!

(١٠)

خريف ١٩٧٥ .

مر كثير من الوقت منذ آخر مرة كتبت شيء، لقد حدث أشياء كثيرة ولم يحدث شيء ، لست أدري ، أشعر بالارتباك لا أعرف ما أقول أو ماذا أكتب يوم تركت "عم حسنين" كنت مشتت، أفكاري متداخلة، لدي رغبة في الهرب من كل شيء ، فقررت أن أغرق نفسي بالعمل حتى لا يكون لدي وقت للتفكير ولا الاشتياق، مرت أيامي مثل بعضها، لا أميز حتى اسمها لم أترك مناوبة أو حالة، تذللت لكل الأطباء الكبار حتى أشارك في عملياتهم الجراحية، نجحت فعلًا في شغل كل وقتي ولكن لم أنجح في نسيانها، وفي يوم كنت جالس أمام سريرها-أو ما كنت أظنه سريرها- سارح في أوقاتنا سويًا، جاءت إحدى الممرضات تخبرني بأن هناك حالة في الطواريء وتريد مني الذهاب، كان طفل في العاشرة من عمره، لديه حرْق من الدرجة الأولي، دخل في حالة صرع بسبب الألم، لا يستطيع أي من الأطباء إيجاد وريد وضع "كانولا" وإعطائه مسكن، بدأ الطفل في الاختناق، لا نستطيع فتح فمه فهو في حالة من التشنج الشديد ، أمسكت ذراعه وحاولت إيجاد وريد ، الطفل يتحرك حركات عصبية، الريم الأبيض يخرج من فمه، بدأت أشعر بأن الطفل سيموت لم يكن أمامنا سوى أن نكسر أسنانه الأمامية لندخل أنبوب يساعده على التنفس، رفضت تلك الفكرة تمامًا، طلبت منهم منحني دقيقة لآخر محاولة في إيجاد وريد ، أمسكت بذراعه محاولًا، فجأة وجدت يد تمسك الطفل من كتفه تهدئه واليد الأخرى تمسح على رأسه، هدأ الطفل للحظة، أشارت لي اليد على مكان رأيت الوريد ينير أمامي كأنه يصرخ أنا هنا، بسرعة وضعت الكانولا واستطعنا أن نعطيه مسكن قوي حتى يهدأ، في وسط نظرات الذهول من المحيطين بي رفعت رأسي لأرى من فعل ذلك؟ كانت هي تقف أمامي مبتسمة، عينيها تشع ضوء ذهبي أثر على مجال رؤيتي أغمضت عيني للحظة بفعل الضوء، فتحتها لم أجدها أمامي، نظرت حولي أبحث عنها ،

الكل يربت على كتفي يهنئني ويسألني كيف فعلت ما فعلت؟ ، أنا لم أسمعهم ولم أجب، كنت أبحث عنها ، رأيتها تذهب في اتجاه غرفة الأطباء، ركضت خلفها، دخلت أمامي الغرفة ، دخلت خلفها لم أجدها ولكن وجدت ورقة مكتوب فيها:

- " مازالت لم تبحث عن اسمي بعد ، ابحث عنه ، في اسمي حياة!"

فتشت عنها مثل المجنون في كل شبر بالمشفى لم أجدها، سألت من حولي عنها لم يجبني أحد بل سمعت إحدى فتيات التمريض تهمس لزميلاتها:

- "لقد عاد لهلوساته مرة أخرى!"

صرخت بها: "لم تكن هلوسات...لم تكن هلوسات،أ سمعتِ؟! "

قطع صراخي صوت ارتطام قوي تلفتنا جميعًا نحو الصوت فإذا بالدولاب الكبير الذي يحمل الملفات يسقط على الأرض وكل المقاعد والمكاتب يطيرون في الهواء، طارت الأوراق عاليًا في دوامات ، ثم فجأة هدأ كل شيء ، نظرنا جميعًا لبعضنا البعض في ذهول قبل أن أُسحب من ذراعي وأطير في الهواء، اصطدمت بالحائط وسقط على الأرض بقوة ، ثم رفعت مرة أخرى حتى السقف ،شعرت بيد قوة تخنقني، وضعت بيدي حولها أحاول فك نفسي منها، أنفاسي تتقطع ، الدموع تتساقط من عيني تحجب عني الرؤية وقبل أن يُغشى عليّ، رأيت من يخنقني كان رجل أسود الوجه ذو عينين نارتين.

فتحت عيني فإذا بي نائم على وجهي على الأرض ومقيد بأصفاد كبيرة من حديد لم أرها لكن شعرت بملمسها علي جلدي، قدماي أيضا مقيدين ، أشتم رائحة غريبة في المكان كأن الأكسجين قليل وهناك رائحة رطوبة تملأ المكان ، سمعت خطوات تقترب مني ، خطوات ثقيلة تجعل الأرض ترتعش مع كل خطوة ، بعد ثوان توقفت الخطوات بالقرب مني ، حاولت رفع رأسي لأرى من هناك لفحني هواء شديد الحرارة، أغمضت عيني وأنزلت رأسي للأرض مرة أخرى.

سمعت صوت جهوري يتأكد أنني هو؟!

أكد عليه صوت جهوري آخر لكن أقل حدة.

فجأة رُفعت عن الأرض بعد سحب السلاسل الممسكة بقيودي وأصبحت معلقًا على الحائط كلوحة زيتية مشؤومة، السلاسل تكتب علي صدري حرف إكس باللغة الأنجليزية، الظلام دامس الآن ، هل كان هكذا وأنا على الأرض؟ لا أدري.

حاولت أن أتبيَّن أي شيء حولي، ثم على حين غرة رأيت وجه أبيض ناصع البياض حتى يكاد أن يكون مضيء، عينيه كبيرة وشديدة السواد ، الأنف صغير ومطموس داخل الوجه، وبلا فم!، لا أدري إن كان لديه أذنين، كان يرتدي مثل عباءة سوداء فضفاضة ولها غطاء للرأس، ينظر لي بفضول، يتفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي، ثم نظر لي في عيني ، سمعت صوته داخل رأسي يسألني:

-"أ تحبها؟! ، أ تعرف من هي؟ ، أ جرؤت على لمسها أيها الإنسيّ؟! "

شعرت برأسي يكاد ينفجر من شدة صوته، حاولت الكلام لم أستطع، كأن فمي مُخيط!

صاح صوته مرة أخرى داخل رأسي:

-" لا تحاول الكلام، لن تنطق إلا عندما آذن لك، والآن هيا لنرى ماذا فعلتم ولأي مدى وصلتم؟!"

غلف رأسي بكفين كبيرين كانا كفيلين بتغطية رأسي بالكامل، رأيت كل ما مر بنا منذ أول يوم رأيتها فيه حتى يوم العملية ، لا أعرف كيف ولكن كأن المشاهد حقيقة وليست مجرد ذكريات ، بعد أن انتهي من كل شيء ترك رأسي شعرت برأسي يسقط ككرة بولنج كم هو ثقيل لا أقوى على رفعه حتى أنظر لذلك الكائن، رأيت خطواته تبتعد عني يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا كأنه يفكر في شيء ما

اقترب مني مرة أخرى رافعًا رأسي بإحدى يديه، يلفحني بحميم خارج من أنفه المطموس، سمعته داخل رأسي مرة أخرى:

-"أ بحثت عن اسمها؟ أ تعرف من هي؟ أ تعرف عقابك كيف يكون؟"

بدأ الحديد يضيق عليّ، أصفادي أيضًا تضيق، صدى صوته يعصف برأسي، شعرت بدمائي تغلي في عروقي بشكل حرفيّ، أصبحت رؤيتي معدمة، تهدج صدري، لم يعد يستطيع استقبال شهيقي أو أرسال زفيري، أظن أنها النهاية، تمنيت أن أراها مرة قبل نهايتي، تخيلتها أمامي، لاح على شفتي شبح ابتسامة، سمعت صوتها يصرخ:

-"ماذا تفعل ، اتركه الآن ، اتركه وإلا ..."

فجأة أُرخيت السلاسل التي تحملني وسقطت على الأرض، حاولت أن أعتدل في جلستي، لم أستطع فكل جسدي يشعر بالخدر.

-"وإلا ماذا؟ ماذا ستفعلين؟ ماذا تستطيعين أن تفعلي أيتها الصغيرة؟"

-" أستطيع أن أموت!"

ران صمت ثقيل في المكان، لم أعد أسمع شيء سوى صوت تنفسه الغاضب ثم خطواته وهو يسير ذهابًا وإيابًا، تكلم مرة أخرى:

-"حسنًا ... لديه ثلاث أيام ليعرف اسمك ولكن أولًا يكتب العهد."

(١١)

خريف ٢٠١٨ .

أنيس وسمير يقفان جانب سرير درويش مع العديد من الأشخاص المُتشحين بالسواد، ذو أعيُن سوداء كبيرة، أنف مطموس بلا فم، كل أعينهم مسلطة على درويش في انتظار لحظة إفاقته من نومه، نظر كبيرهم إلى أنيس، حرك أنيس فمه هامسًا:

-"عارف أنه كتاب مقفول، حاولت كتير افتحه أنا وسمير معرفناش عشان كده بعتلكم يا كبيرنا".

نظر كبيرهم مرة أخرى لأنيس الذي صاح:

-ازاي يعني؟ عهد إيه؟ هو كان التزم بالعهد؟ مد ايديك امسك دماغه ساعتها هنعرف هو ناوي على إيه أو حصل إيه!

بدا الغضب على كبيرهم، بدأ صوته يصدح في أرجاء الغرفة مما جعل أنيس وسمير يمسكون رأسهم بفعل الألم، تكلم سمير بصعوبة:

-أنيس ميقصدش يمليك أوامر، إحنا بس قلقانين زي ما حضرتك شايف، الهالة بتاعته عمال تزيد وتحجب كل أفكاره عننا.

هدأت ملامح كبيرهم قليلًا ونظر لدرويش النائم في سريره، ثم همس في رأس كل من أنيس وسمير قائلًا:

*أنا لا أخُن عهد أبدًا، إذا أثبتم خيانته فلا عهد له عندي ولا رحمة!

طرقات صابرين الضعيفة على الباب جعلت ذاك الجمع ينظر للباب، حاولت فتح الباب بعد طرقه لكنه كان موصدًا.

-إيه ده الباب ماله مش عايز يفتح ليه؟

حاولت صابرين فتح الباب مرارًا دون جدوى.

داخل الغرفة، يهمس أنيس لكبيرهم:

-دي بقى حكايتها حكاية، هي والدكتورة اللي من ساعة ما جت وهي مقوياه علينا.

أشار للباب ففُتح، دخلت صابرين باندفاع لأنها كانت تحاول دفع الباب بالقوة، سقطت من يدها صينية الإفطار، جثت على الأرض تلملم محتويات الصينية وهي تهمهم:

*كل ده حصل والدكتور نايم ليه؟ نايم في كهف؟، إنتِ إيه حظك دا بس يا بت يا صابرين؟ هتروحي تحضري فطار تاني؟!

اقترب كبير القبيلة من صابرين واضعًا كفه على رأسها المحني، شعرت صابرين بالدوار والصداع الشديد، حاولت أن تتحرك لم تستطع، بسرعة فهمت أن ما يحدث ليس طبيعي بدأت تُمتم ببعض آيات القرآن الكريم وبعض الأذكار.

عينا كبير القبيلة زادت اتساعًا وسوادًا ، رفع كفه عنها مما جعلها تترنح وتسقط في الأرض مَغشيًا عليها، أشار لكل أتباعه بالانصراف، تبعهم أنيس وسمير.

في المملكة الأخرى، وقف كبير القبيلة في وسط دائرة من أتباعه، صدح صوته في أرجاء المكان متوعدًا أنيس وسمير اللذان يقفان بكل خوف في مكانهما:

-كم استهنتم بوقتي؟ ، أ تلك الفتاة هي الرأس المُدبر، مدبر لماذا؟ ها...

إنها لا تمتلك في رأسها سوى بعض الذكريات عن طفولة بائسة، أ تخالون أن بعض الماء والملح قد يؤذيكم، أم تخالون أن وقتي بلا ثمن؟

حاول أنيس أن يتحدث، رفع كبير القبيلة يده فصمت أنيس ، نظر لسمير وأشار له أن يتحدث ، تلعثم سمير قليلًا:

-من الواضح أن ... أن الدكتورة الجديدة اللي جت فيها حاجة غيرت درويش، أممم...من يوم ما جت وهو هالته زادت قوي وكمان قدرته على مقاومتنا زادت، من يوم ما قعد معاها والسور اللي بانيه في خياله بيطول وبيشد ومش عارفين نخترقه!

هز رئيس القبيلة رأسه وهو يقول: الطبيبة؟!

استيقظ درويش من نومه العميق وهو يشعر براحة غريبة، يتذكر مقتطفات من حلم أمس، لقد رآها أخيرًا، كم تمني أن تزوره في حلمه ولو مرة! ، تسآل في نفسه كم مر من الوقت قبل أن يراها؟ ، تنهد مبتسمًا قبل أن يقوم من فراشه، وقع نظره على صابرين المَغشيّ عليها على الأرض، اقترب منها بحذر وهو يرى أثر كف كبير القبيلة على جبينها، وفهم أنهم كانوا هنا وأنها وقعت تحت أيديهم.

رفع صابرين بجسدها الضئيل من على الأرض بمنتهى السهولة، فرغم كِبر سنه إلا أنه مازال عفيًّا ، وضعها على الأريكة لتكمل نومها فهو يعلم جيدًا أنها لن تستيقظ الآن!

ذهب لغرفة الطبيبة وطرق بابها المفتوح برفق، رفعت هيام عينيها عن التقرير الذي تكتبه ونظرت في اتجاه الباب، تهلل وجهها عندما رأت درويش يقف أمامها، قامت من مكانها بسرعة:

-إيه المفاجأة الحلوة دي؟ اتفضل يا دكتور.

هز درويش رأسه بالرفض قبل أن يقول: إنتِ اللي هتِتفضلي معايا!

وأشار ناحية الباب، أطاعته هُيام بلا أسئلة، دخلا غرفته ، فوجئت هيام بنوم صابرين على الأريكة.

- إيه اللي حصل؟ ، صابرين نايمة هنا ليه؟

- لما قَمت من نومي، لاقيتها واقعة على الأرض، رفعتها ونيمتها على الكنبة لأن نومتها هيطول شوية!

التفتت هُيام لدرويش متسائلة: هيطول ازاي؟! هو إيه اللي حصل؟

هز درويش رأسه يمينًا ويسارًا: مش عارف.

حاولت هيام إيقاظ صابرين، جلست على الأرض بجانبها، هزتها قليلًا وهي تنادي باسمها لكن صابرين لم تستيقظ، هزتها بعنف أكثر ولم يحدث شيء، صابرين لم تستيقظ بعد، رفعت عينيها تنظر لدرويش الذي جحُظت عيناه للحظة ثم رُسمت ابتسامة عذبة على شفتيه، انحنى لها وساعدها على الوقوف وهو يقول:

-كنت فاكر إني بحلم بس إنتِ هنا بجد، وحشتيني!

ثم عانقها بقوة وأكمل حديثه: وحشتيني أوي...

دفن أنفه في رقبتها وبين خصلات شعرها

- ريحتك وحشتني أوي، كام سنة حلمت باللحظة دي، كنت عارف أنك هترجعي إنتِ وعدتيني ووفيتي بوعدك.

دفعته هُيام بلطف مربِتة على كتفه، ابتعد عنها قليلًا، لمست وجهه بطرف أصابعها وهي تنظر في عينيه:

- خليني أبُص لعينيك، ووشك وأشبع منهم أنا مش عارفة هقدر أكون موجودة قد إيه ولا هعرف أجيلك تاني إمتى!

عانقها مرة أخرى:

-عايز أعرف كل حاجة، بس مش عايز اسيبك من حضني، أنا ماصدقت لقيتك، عايز أشبع من ريحتك خلينا كده شوية خليني اشبع منك.

مر قليل من الوقت قبل أن يخرج درويش وهُيام من الغرفة للحديقة تاركين صابرين نائمة كما هي، أجلس درويش هُيام أسفل شجرته المعتادة، وجلس جانبها ممسكًا بيدها، سحبت هيام يديها برفق:

-خلي شكلنا طبيعي، عشان خاطر البنت الغلبانة دي ملهاش ذنب في قصتنا.

وافقها درويش على مضض: عندك حق بس أنا مش عايز اسيبك ثانية.

ضحكت هُيام غامزة إياه: الستات دايمًا على حق.

انهال درويش بأسئلته على هُيام:

- مش عارفة أقولك إيه؟ ، أنا نفسي مش عارفة أنا جيت هنا ازاي؟ ، بس بقالي فترة بشوفك في أحلامي، أو كنت فاكرة أنها أحلام، بالرغم إني حاولت كتير أدور عليك بس كان في حاجة منعاني، حاجة مخلياني كل ما احاول بس أشوفك مشوفش إلا لوحة سُوده، فجأة لاقيت طاقة نور بتشدني، روحت وراها لقيتك.

ابتسم درويش ناظرًا لهيام قبل أن تجحظ عيناه من الخوف، فإذا بأنيس وسمير واقفان خلف هُيام:

همس باسمهم بفزعٍ:

-أنيس .... سمير.

(١٢)

خريف ١٩٧٥ .

-"حسنًا...لديه ثلاث أيام ليعرف اسمك ولكن أولًا يكتب العهد!"

كانت تلك آخر كلمات أتذكرها قبل أن يُغشى عليّ، أفقت لأجد نفسي في سرير وثير، تداعب أنفي رائحة زهور اللافندر المنعشة، اعتدلت في مجلسي فإذا بي نائم على سرير وسط غرفة ذهبية اللون كأن جدرانها مبنية من خيوط الشمس، تشع بريق أخاذ، قمت من مكاني وخرجت من باب تلك الغرفة لأجد أمامي وحولي حقول لزهور اللافندر بلونها البنفسجي الزاهي، رأيتها تركض من بعيد في اتجاهي، تلوح لي بيد مُمسكة باقة من الزهور، على فمها تشعُ ابتسامة لها بريق يضاهي بريق الشمس ،تناديني قائلة:

-يا روح الروح...

أُلوح لها أنا أيضًا، ركضت في اتجاهها ، بعد خطوتين شعرت بقدمي تُسحب لأسقط على الأرض، نظرت حولي المكان مظلم، عادت رائحة الرطوبة واختفت رائحة اللافندر ، رفعت رأسي لأتبين أين أنا؟، هل كنت أحلم؟ ، فركت رأسي محاولًا التفكير، أنار ما حولي فجأة لأجد نفسي في نفس الغرفة السوداء بجدرانها العالية التي لا أرى لها سقف ، وأرضيتها الحجرية، مازالت مكبلًا بالأغلال، جلس أمامي أحدهم نظر لي يتفحصني، وهو يحرك رأسه بتمايُل يمينًا ويسارًا، اقترب مني أكثر حتى أصبحت أتنفس زفِيره، بؤبؤ عينيه الكبير حجب عني الضوء بسواده القاتم كأنه يمتص أي ضوء، صرت لا أرى سوى عتمة، لوهلة كدت أغرق فيها لكن لا أعرف كيف خرج ضوء أبيض يميل للزرقة من عيني، أخذ يكبر في شكل دائرة كبيرة حول رأسي ثم كبر أكثر حتى إبتلع ظلامه!

سمعت صوت تصفيق، قام من كان يجلس أمامي لأرى أن هناك أحد آخر معنا في الغرفة، كان نفس الرجل أعتقد أنه كبيرهم، اقترب مني ، سمعت صوته في رأسي:

- حسنًا لقد فهمت الآن كيف ظهرت لك ابنتي ولك أنت بالذات، أي أحد يملك هالتك يصبح كالمغناطيس لا يقاومه الحديد أبدًا!

صفق بيده مرة أخرى، سقطت أمامي طاولة عليها لفة طويلة مُذهبة الأطراف مربوطة بشريط بنفسجي اللون، أمرني أن أجلس على المقعد وأكتب العهد بيدي، نظرت له في عدم فهم عن أي عهد يتكلم وكيف أكتب ما لا أعرف؟ ، كأنه قرأ أفكاري أو بالأحرى سمعها، أجابني:

- ستكتب عهد على نفسك أنك ستكون لها حتى تقول هي عكس ذلك، لن تُفشي سرها لأحد بل لن تخبر عنها أحد، وفي المقابل سأسمح لك بزواجك منها ولكن ستكون ملك لنا سنساعدك في ما تريد في حياتك الأخرى، لكنك ستصبح لنا بمعنى أن يومك لا يوجد فيه سوانا، لن يكون لك عائلة ولا أصدقاء إلا منا، و ستساعدنا عندما تتطلب الحاجة!

غطيت وجهي محاولًا التفكير بعقل هل حبي لها يكفي لأن أتنازل عن أي حق لي في حياة بعيدة عنها؟ ، ابتسمت بسخرية على تفكيري، أكان لي حياة وعائلة قبل أن أراها؟!

قمت من مكاني وجلست على المقعد أمام الطاولة، اختفت الأغلال من يدي، أمسكت باللفافة فاتحًا شريطًا، وقبل أن أفتح اللفافة كلها أمامي همس داخل رأسي:

-لا تنس أن هذا العهد لن يكون أو يُصبح حقيقة قبل أن تعرف اسمها، والآن فلتكتب.

أمسكت بالريشة الموضوعة أمامي، أدخلتها داخل قنينة الحبر وبدأت في كتابة عهدي.

بعد أن انتهيت من كتابة عهدي، أمرني أن أثقب إصبعي وأبصُم على اسمي، وبذلك أصبح العهد ملزمًا عليّ مادمت حيًا!

صفق بيديه مرة؛ اختفت الطاولة والمقعدة، ثم صفق مرة أخرى!

مازالت أسمع تصفيق جانب أذني، فتحت عيني، رأيت زميلي البشوش ينظر إلي عن قرب وهو يصفق جانب أذني، لم أدرك أين أنا لوهلة من الزمن، لم أميز في أي عالم صرت، هل كنت أحلم؟ ، هل هي هلوسات؟، نظرت لزميلي متسائلًا، فاجأني بعناقه لي وهو يخبرني مدى سعادته لأنني بخير، رفعت جسدي لأعلي لأجلس وأنا أشعر بأن عظامي كلها تكسرت، أخبرني زميلي أنني كنت نائم منذ أن أُلقيت على الحائط وسقطت!، سألته كم مر من الوقت فلم يكن سوى ساعتين!

ساعتين لقد كنت لمدة يومان في العالم الآخر هل يعني ذلك أن أمامي ٣ ساعات لأعرف اسمها، جزعت ، تملكني التوتر، قمت من مكاني أتعَكز على زميلي الذي ساعدني على الخروج من المشفى ظنًا منه أنني سأعود لمنزلي لأرتاح، أما أنا فقد ذهبت إلى عم حسنين، طرقت على باب منزله العديد من المرات بلا مجيب، ما إن هممت بالانصراف حتى فتح باب، استقبلني بابتسامة كعادته سألني عن موجز رحلتي، تعجبت من أين عرف أنني ذهبت هناك فلم يكن منه سوى ابتسامة إجابة عن سؤالي هذا، في بعض الأحيان تساورني العديد من الشكوك عندما أفكر به ولكن اليوم لم يكن أمامي متسع من الوقت لأفكر في أي شيء سوى اسمها.

-"ما سر الاسم؟ لماذا هو بذلك الأهمية؟" كان هذا سؤالي له بعد أن جلسنا في الشرفة، أجابني أن اسمهم مرتبط بقواهم فإن أخبرتني هي به فقد امتلكتها، أما إذا عرفته دون مساعدتها فقد نتشارك قوتها أو لا حسب رغبتها، لذا دائمًا يحجبون اسمهم عن الأنس.

الآن أصبح الموضوع مفهوم بالنسبة لي ولكن ذلك لم يُفدنِ بشيء لأنني لا أعرف أين أبحث عن اسمها، قالت لي في اسمي حياة...

أتعني الدنيا هل اسمها دنيا أم تعني حواء فهي أصل الحياة، أشعر أن عقلي سينفجر من كثرة التفكير، عم حسنين لم يفدنِ بشيء بالعكس شعرت بأنه لا يريدني أن أجد الاسم، لم يكن منه إلا لومي على توقيع العهد، وإخباري كم حذرني وأنني ذهبت بقدمي إلى حافة الهاوية والعديد من الأشياء المزعجة، لا أعرف لماذا انتابني ذلك الشعور بعدم رغبته الحقيقية في معرفتي باسمها؟ من الممكن لأنه أخبرني أنني لن أستطع أن أجد اسمها دون تلميح منها وأنني من الأفضل أن أنساها!

كدت أجن تركت عم حسنين وخرجت أسير في الشوارع بلا هدى، ساقتني قدمي إلى ذاك المكان حيث جاءتني أول مرة، جلست على نفس المقعد أنظر لمياه النيل وأفكر في كل حديث دار بيننا، أحاول أن أتذكر، لا أتذكر شيء هام، لقد أخبرتني بالفعل أن هُيام ليس اسمها وأن لها اسم آخر لا تريد أن تخبرني به، أخبرتني أنها تحب الحياة ثم أخبرتني أن في اسمها حياة، الوقت يمر لم يعد هناك إلا ربع ساعة وأنا لا أعرف أين أبحث عن اسمها!، رأسي يؤلمني من التفكير لماذا لا أستطيع تذكر أي شيء؟!

بعد لحظات حضر أمامي العديد من الجنود بزيهم الحربي القديم خاطبني قائدهم بأن عليّ أن أذهب معهم الآن.

(١٣)

خريف ٢٠١٨ .

قام درويش من مكانه بسرعة واقفًا بين أنيس وهُيام ، صاح قائلًا:

-هي ملهاش ذنب، حسابك معايا أنا.

لف سمير من الناحية الأخرى وأصبح خلف هُيام قبل أن يتكلم:

-الحساب هيكون معاكم أنتم الاتنين، ولا هي سايبة؟!

في لحظة كانوا في المملكة الأخرى، درويش يقف أمام هُيام يحميها بجسده، أنيس وسمير يقفون جانب رئيس القبيلة الواقف أمام درويش في تحدي، الجنود يحيطون بهم في شكل دائرة كبيرة، تكلم رئيس القبيلة:

-لقد نقضت عهدك مرة أخرى يا إنسيّ.

أجاب درويش بتحدي: لا محصلش.

-إذن بم تفسير ما رأيناه؟

-مفيش حاجة عشان افسرها، أنا كنت قاعد مع المستشارة النفسية للدار اللي أنا ساكن فيها تحت إشرافِكم، متكلمتش عن حاجة تخص...

صمت قليلًا ثم أكمل:

-تخص اللي يُخصكم ، ما صاحبتش حد ، معملتش عيلة وأهل ... يعني من الأخر أنا زي ما أنا فين نقض العهد ده؟

ضحك رئيس القبيلة قبل أن يصدح صوته مزلزلًا أرجاء الغرفة وهو يقول :

-أ تستقل بذكائي يا إنسيّ؟ ، أ تظن أنني لن أعرف من تكون تلك الطبيبة؟

شعر درويش بالتوتر أ عرفوا أن هُيام تجسدت في جسد هُيام الصغيرة؟ ، أم عن ماذا يتحدث؟

أشار رئيس القبيلة لأنيس حتى يتكلم:

-موضوع الدكتوره ده شَغلني جدا ، وطبعًا بلغت بيه كبرنا ، الحكاية محتاجتش أكتر من كلمتين مع بواب عمارتها عشان أثبت إنك خاين للعهد.

لم يعد درويش يفهم ماذا يحدث أو عن ماذا يتحدث أنيس؟

-بواب عمارتها ماله ومال العهد اللي بيني وبينكم؟

ابتسم أنيس بخبث قائلًا:

*متعملش عبيط، وتستغبانا كلنا احنا خلاص عرفنا هي مين، مفيش داعِ للتمثيل.

غضب درويش وصاح:

- لما تتكلم معايا تتكلم كويس، أنت فاهم؟! وبعدين أنتَ مين عشان اعملك حساب واستغبَاك وامثِل عليك؟

أجاب في تحدي:

-أنا اللي أنتَ كنت عامله حساب طول الخمستاشر سنة اللي فاتت ولا نسيت؟!

-ودي حاجة تتنسى، بس اللي أنت نسيته أو فاهمه غلط هو أني مكنتش بعملك حساب، أنا كنت بكفي الناس شركم أنتم الاتنين، استحملت وجودكم عشان متضُروش حد، استحملت تحكُماتكم ، استحملت أنه يتقال عليا مجنون وأنا عارف أنكم كنتم قاصدين تعملوا التصرفات دي، إنكم بتخوفوا الناس مني عشان ميبقاش ليا حد غيركم، كل دا كنت عارفه ومستحملُه عشان متضُروش حد ، لكن مدام جبتوها هنا يبقوا أنتوا اللي نقضتم عهدكم وأنتوا اللي المفروض تتحَاسبم مش أنا.

صفق أنيس بحرارة وهو يقول بصوت مسرحي جهوري:

-ممتاز يا أستاذ ياريت تعيد تاني.

ثم قطع ضحكته وكلامه ونظر بغضب لدرويش:

- أنت مُصر أنك تستغْبانا، وفاكر إننا مش هنعرف هي مين؟

قاطعه سمير بحدة:

-أنا زهقت قوله هي مين عشان الموضوع كدا هيطول.

صاح رئيس القبيلة:

-اصمتا أنتما الاثنين، الآن حان وقت حديثك يا درويش، أخبرنا من تكون تلك الطبيبة المزعومة.

هُيام مازالت تتشبث بذراع درويش تحتمي بظهره، لا تصدق ما ترى آخر شيء تتذكره هو محاولتها لإفاقة صابرين ثم وجدت نفسها هنا، ماذا يحدث معها؟ ، من يكونوا؟ لماذا الجو خانق ذو رائحة غريبة؟ أين هي؟ كل تلك الأسئلة تجول في خاطرها.

درويش يبدو قوي جدًا ، عضلات ذراعه مشدودة كأنه مازال في الثلاثين من عمره، تشعر أن كتفيه أصبحا أعرض وانحناءة ظهره بسبب عوامل السن لم تعد موجودة بل كأنه شاب لم يتعد الثلاثين عامًا فعلًا!

تكلم درويش بثقة وقوة:

*أنا قُلتلك إنها المستشارة النفسية للدار اللي أنتم اخترتوها ليا وبقالي فيها سنين تحت إشرافكُم مفيش أكتر من كده.

-إذن فلتسمح لنا بكشف طاقتك ورؤية صدق كلامك من خلال أفكارك.

-أنا مكدبتش في حرف واحد، ولو حابب حاول تخترق دماغي وأنا مش هقاومك.

ابتسم بالطرف الأيسر لشفتيه في تحدي، اقترب منه كل من رئيس القبيلة ، أنيس وسمير، نظروا في عينيه، اتسعت حدقتا عين أنيس وسمير حتى صارت سوداء قاتمة، بدأت تخرج من عينيهم طاقة سوداء، درويش يقف بثبات ناظرًا إليهم.

بدأ يخرج من عينيه ضوء أبيض مائل للزرقة، الضوء يتحول ليشكل ستار من نور، مازال الظلام يخرج من ثلاثتهم يصطدم بستار النور، الستار يعلو لأعلى أكثر، الظلام بدأ يلتف حول درويش وهُيام، درويش بدأ يتقهقر للخلف قليلًا وهو يمسك بيد هُيام يدفعها خلفه ليحميها بجسده ، هيام تنظر في فزع لذلك الظلام، لا تستوعب ما يحدث حولها، فجأة بدأ يخرج ضوء أبيض فيروزي من عينيها هي الأخرى، الضوء صنع ستار مماثل لستار درويش ثم بدأ يلتف حولهم ككرة تحميهم من كل الاتجاهات أنيس وسمير بدا عليهم التقهقر أما رئيس القبيلة أصبح في المقدمة صاح بصوتٍ عالٍ:

-كفى!

خفض أنيس وسمير دروعهم السوداء ثم انطفأت داخل عيونهم قبل أن تعود لحالتها الأولى، درويش وهُيام مازالا يحيط بيهم هالتهم البيضاء، صفق رئيس القبيلة بيديه:

-أ مازلت تنكر معرفتك بها يا درويش؟

خفض درويش هالته البيضاء أما هُيام مازالت تحيط بها هالتها، نظر لها درويش مطمئنًا حتى تخفض هالتها:

-متقلقيش أنا جنبك، لما هتِطمني هتِقفل لوحدها.

وجه حديثه لرئيس القبيلة:
-أنا مأنكرتِش معرفتي بيها هي تبقى مستشارة الدار.

-أ ليست ابنة أخيك يا درويش، أم أناديك بعليّ أفضل؟

تراجع درويش للخلف خطوتين ثم نظر لها في تساؤل:

-أنا آسفة إنك اتعرفت عليا بالشكل ده يا عمو.

خاطبها رئيس القبيلة:

-أ تعترفين أنك على علم بأنك ابنة أخيه؟ ممتاز والآن وقد ثبت نقضك لعهدنا...

قاطعته هُيام صارخة:

-آه بعترف إني عارفة بس دا مش معناه أن هو عارف، هو أول مرة يسمع الكلام ده هنا ودلوقت.

تدخل أنيس:

-عارف ولا مش عارف احنا حذَرناه إنه يبعد عنك وهو اختارك علينا.

خاطبته بغضب:

-هو مختارنيش بالعكس اختاركم مرة واتنين وتلاتة، وأنا حاولت كتير معاه عشان يختارني، كان بيختاركم برضه ، لكن أنا عارفة أنه عمي ازاي أسيبه لكم؟!

جاء صوت من خلف هُيام:

-كنت عارف إنك هتغلط أو هتزهق في يوم وكنت مستنيه على نار ... عاش من شافك يا درويش.

نظر درويش بغضب لصاحب الصوت، أقبل أنيس وسمير على صاحب الصوت قائلين بصوتٍ واحد:

-جدو!

قال درويش: عاش من شافك يا حسنين...

(١٤)

خريف ١٩٧٦ .

لا أصدق أنه مر عامًا منذ ذاك اليوم، حين أتذكر ذاتي في نفس التوقيت من العام الماضي، أدرك أن عامًا واحدا يمكن أن يغير الكثير ، كنت أجلس علي نفس المقعد على الكورنيش أرى نفسي تائهًا لا أدري أي طريق أسلك، هل أكف عن بحثي وأَنساها أم أُكمل بحث؟ ، كيف أبحث وأنا لا أجد ما يُرشدني، صرخت بصوت عالٍ قائلًا:

-"أنا في الظلام أحتاج لمن يُضيء لي الطريق لأخرج إلى النور."

حضر الجنود لأخذي للمملكة الأخرى، كنت أشعر بالتوتر الشديد حتى كدت أن يغشى عليّ، عقلي لا يساعدني، وقفت أمام رئيس قبيلتها ووالدها، خاطبني داخل رأسي بصوت تشوبه اللهجة العسكرية:

-"لقد مرت الثلاث أيام، وانتهت مُهلتك، عليك أن تخبرني باسمها أو أن تنسى أنك في يوم ما رأيتها وإن عصيت أمري سيحل عليك عقاب لن تتخيله أيها الإنسيّ.

دخلت علينا الغرفة تتهادى في دلال ، شعرها خيوط ذهبية كأنه صنع من ضوء الشمس، ترتدي فستان بنفسجي زاهي، نظرت لي وأطالت النظر كأنها تذكرني بشيء، قطع علينا نظراتنا والدها وهو ينهرَها ويسألها لما أتت الآن؟ أجابته أنها أرادت أن تراني فرُبما تكون النظرة الأخيرة.

أمر والدها جنوده بأخذها بعيدًا، حاولت أن تثنيه بلا جدوى، الجنود يسحبونها من ذراعيها، هي تنظر لي وتخبرني بحبها، التفت إليَّ والدها قائلًا في نفاذ صبر:

- أخبرني اسمها."

-"روح"...

فجأة صمت الجميع، توقف الجنود عن سيرهم بها، نظروا نحوي جميعًا،

اقترب والدها أكثر مني ونظر داخل عيني، صوته كان يصرخ داخل رأسي يزلزل كل كياني:

-" كيف عرفته؟ ... كيف؟ .. هل أخبرتك؟"

حاولت أن أجيب لكنه منعني بحركة من إصبعه قبل أن يضعه على رأسي ، شعرت بالخوف من أن يرى حلمي، مر القليل من الوقت قبل أن يرفع إصبعه عني في غضب، أمر الجنود أن يتركوها، سارت ببطء نحو والدها وعلى فمها ابتسامة نصر، أمسكت بذراعه في دلال، قربت وجهها منه وهي تهمس:

-"أريد عرس أسطوري."

سحب والدها ذراعه منها وقبل أن يتكلم تعالت ضحكاتها وهي تقول:

-"أمزح معك يا والدي، لا أريد عرس أسطوري، وإن كنت أستحقه فأنا بنت ملك القبيلة ووريثته، لكن يكفيني أن أكون معه بعلمك ورضاك."

مر الأحداث سريعة جدًا بعد ذلك، لم أعد أحسب الأيام، عرسنا كان مَهيب حضره كل ملوك القبائل، الفصائل، والعشائر ، كان عرس كالحلم بقاعته الزجاجية الكبيرة، المنحوتات الذهبية التي تكسي كل الأركان، صغيرات الجن يُحلِقن فوق رؤسنا كفراشات يقومن بالخدمة على الحضور، وغلمان من العفاريت يقومون بتقديم الطعام أما هي فكانت كأميرة من أميرات الأساطير، أميرة لم يكتب عنها بعد في حكايات ألف ليلة وليلة أو حتى في قصص (والت ديزني) التي بدأت تجتاح العالم، كان فستانها مرمري اللون ، طويل جدًا، مزين باللؤلؤ والماسات، شعرها ينساب على ظهرها في شلال ذهبي غزير، دخلت علينا من السماء، تحملها صغيرات الجن وصغيرات العفاريت، طافت فوقنا قليلًا قبل أن يرفعني ويطير بي بعض العفاريت والجان الصغير ، طُفنا فوق رؤوس الجميع في دوائر راقصة، تعالت ضحكاتنا ونبضات قلوبنا.

استمر العرس ثلاث أيام وبدأ بعده الحلم الحقيقي لم أكن أدرك أن هناك حياة أخرى وعوالم أخرى غير عالمنا، سرت داخل كل تلك العوالم، أصبحت أزداد قوة يومًا بعد يوم، أما هي فتزداد جمالًا، حياتنا كانت مقسومة لقسمين،الأول في مملكة البشر طبيب ناجح، لا أعرف كيف صرت هكذا في وقت صغير؟ لا... أنا أعرف فهي السبب!

وجودها جانبي داخل كل عملية جراحية أشعرني بثقة وقوة في اتخاذ القرارات الصحيحة في الوقت الصحيح، كما أنها تساعدني مثلما فعلت في عملية الطفل الصغير ذو قطعة الخشب أو كما فعلت يوم تشبهت بصورة رئيسة التمريض وساعدتني مع عم حسنين، أما القسم الثاني فكان في مملكتها هي، كنت أمارس الطب الروحي واساعدهم في علاج الكثير من الحالات الغريبة، أصبحت هالتي أكبر، هي تعلمني كيف أحافظ عليها وأكبرها، كيف أصنع حائط لعقلي لا يستطيعون أن يخترقوه، هي تقول أنني فعلت ذلك يوم أن سألني والدها كيف عرفت اسمها، لكني في الحقيقة لا أعرف إن كنت فعلت أم لا؟، كل ما أعرفه أنني كنت خائف من خسارتها.

وها أنا ذا بعد عام أجلس في نفس المكان الذي كنت أتمنى أن أراها فيه، أجلس معها تتشابك أصابعنا، تريح رأسها الجميل على كتفي، نحلم سويًا بمستقبلنا.

اليوم جاءني "عم حسنين" لم أره منذ عام ، فلقد التزمت بعهدي ولم أتخذه هو أو غيره خليلًا لي ، كان يبدو مختلف ، عينيه لم تضحك لي على الرغم من الابتسامة التي تعلو ثغره ، فاجأني بسؤاله عن والدي فأنا لا أتذكر أنني تكلمت عن عائلتي معه أبدًا حتى عندما سألني عن طفولتي لم أخبره ، لاح على وجهي تساؤلاتي فأخبرني أنه يعرفني منذ الصغر وأنه من ساعدني في محنتي وأنا طفل وأنه صديق مقرب لوالدي!

ما كل تلك المفاجآت التي تتوالى عليّ ، أنا لا أذكر أنني رأيته قبل اليوم الذي عالجته فيه ، فكيف يكون صديق مقرب لوالدي ؟! ، أ لذلك كنت أشعر بالراحة معه؟ ، وعن أي محنة يتحدث؟!

بدأ يحدثني عن محنتي، كيف كنت طفل كما يقال -مرفوع عنه الحجاب- كنت أخبرهم بأشياء وكانت تحدث كما هي ، أُحدث أناس لا يروهم ، حتى أطلقوا عليَّ اسم درويش، كل ذلك أذكره ولا أهتم به لأنني منذ أصبحت واعيًا استطعت أن أقفل تلك البوابة، فلم أعد أرى أحد غير موجود -بالطبع كان هذا قبل أن أعمل في المشفى- ، ولم أعد أحلم بأشياء ستحدث ، لكن ما أخبرني عنه بخصوص أخي الصغير هو ما أصابني بهلعٍ شديد، لقد اعتدت علي جفاء والدي معي، حزن أمي الدائم ، وتجنب أخي الكبير لي، لقد اعتدت على لقب درويش، اعتدت أن أسمع حكايات خارقة للطبيعة عني وأنا طفل، وسخرية الجميع من تلك القدرة ، حتى أصبحت أكره وجودي معهم وكانت كلية الطب بكثرة أشغالها وبعدها عن منزلي مهربي الوحيد، أذكر أن والدي رحب جدًا عندما علم أنني سأستأجر غرفة صغيرة قريبة من الجامعة، لم يُثنني أبدًا هو أو أمي بالعكس كأنها فرصة أتيحت لهم من السماء كل ذلك كان يحدث معي وأنا أتساءل لما ، هل كنت ابن سيء لتلك الدرجة؟ ، لكن بعد فترة اعتدت وكففت عن السؤال، أحببت كوني وحيدًا ، لم يعد يؤرقني ذلك.

اليوم عم حسنين أخبرني سبب كل ذلك، أن والدتي أنجبت طفل يصغرني بثلاث أعوام، أخي الصغير كان يشبه الملائكة بوجهه الأبيض، عيونه السوداء الكبيرة، شعره الفحمي وابتسامته الخلابة، منذ أن ولد وأنا كنت أجلس جانبه وأبكي وعندما يسألني أحد لماذا أبكي؛ ، كنت أخبرهم أنني أحبه لذلك سأفتقده، مر عامان عليّ وأنا في نفس الحال، ثم أصبحت أحدثهم عن موته المفاجيء وأنه سوف يختفي فجأة، حاولت أمي معي أن أكف عن هذا الكلام، لكن كنت أردده على مسامعهم كل فترة، أصبح تعلق أمي بأخي أكبر ، كانت لا تخرج معه أبدًا، دائمًا في البيت ومعه العديد من الأشخاص لرعايته وظل هذا حالنا حتى يوم عيد ميلاده الخامس، والدتي أصرت على عمل حفلة كبيرة له وأن تأتي بإسماعيل يس ومحمود شكوكو لإحياء تلك الحفلة، امتثل والدي لطلبها، أما أنا كنت أحُثهم على إلغائها

وأنه لا يوجد داعٍ لذلك، تخيلوا أنني أقول ذلك بدافع من الغيرة ولم يسمعنِ أحد، الليلة التي تسبق عيد ميلاده أصررت أن أنام معه في حجرته بل في نفس السرير ونمت وأنا أحتضنه، كل تصرفاتي كانت تدل على توقعي حدوث شيء ما، ولكن انشغالهم بتجهيزات الحفلة شغلتهم ولم ينتبهوا .

بدأت الحفلة وانشغل الجميع أكثر بمونولوجات شكوكو ويس، حان موعد إطفاء الشمعة وبعد إطفاء الأنوار ونفخ الشمعة عاد الضوء من جديد لم يكن أخي موجود، تشتتنا جميعًا نبحث عنه ولا يوجد أي أثر له، جاءت الشرطة لتحقق، مرت الأيام ولا يوجد أي خبر عنه أو أي أحد رآه في أي مكان سواي كنت أحدثهم دائمًا أنني أراه لكنه في مكان بعيد يصعب علي الذهاب له، أنه يبكي ويريدنا أن نذهب ونعيده إلينا مرة أخرى، أمي تبكي ليل نهار، أبي لم يكف عن البحث عنه أبدًا.

أعلن عن جائزة مالية ضخمة لمن يعثر عليه ، ساءت حالتنا جميعًا، أما حالتي أنا كانت الأسوأ كنت أستيقظ من نومي أقص عليهم أشياء غريبة وبشعة تحدث مع أخي الصغير، كنت أبكي و أرتجف ، بدأت تنتابني نوبات عصبية أتحدث خلالها بصوته وأطلب منهم مساعدتي، الوضع أصبح لا يُحتمل، بحث أبي كثيرًا عن أحد يساعدني وهنا تعرف على عم (حسنين) الشخص الذي ساعدني في التخلص من تلك النوبات ومن تلك القدرة أو الموهبة التي لديّ، وليس هذا فقط بل ساعدني على نسيان كل شيء يخص تلك الحادثة وتخص أخي الصغير.

(١٥)

شتاء ١٩٧٦ .

مازالت تلك الهواجس تطاردني، تلك الأحلام عن أخي الصغير، كل الأحداث التي مسحت من ذاكرتي عادت وبقوة، كلما أغفو أراه أمامي يرفع كفه الصغير لأُمسك به، أسمع صوته العذب يناديني، هُيام تشعر بالقلق، أن هناك خطب ما، تسألني دائمًا عما حل بي لا أعرف ماذا أقول لها؟، أخاف أن أخبرها يزداد قلقها أكثر، لا أجد من أشاركه تلك الأفكار سوى عم حسنين، بالطبع لا أستطيع أن أذهب إليه لكن هو من يأتيني دائمًا على فترات متباعدة في المشفى كمريض.

اليوم حجزت تذكرتين للسينما، فزوجتي الحبيبة تريد أن تحضر فيلم (رشدي أباظة) الجديد (عالم عيال عيال) ، كنت قد حجزت مرتين قبل ذلك لكن دائمًا ما يحدث شيء ما يمنعنا من الذهاب، هي متفهمة جدًا لطبيعة عملي في كلا المملكتين لذلك لا تعترض سوى اعتراض ضعيف أقرب للدلال وليس اعتراضًا.

قبل أن أذهب مباشرة جاءني طفل صغير يصرخ ويشتكي من ألم شديد في بطنه ، لابُد من التدخل سريعًا فأنا أشتبه في انفجار الزائدة الدودية، اتصلت بزوجتي طلبت منها أن تنتظرني قليلًا وأنني سأبعث أحد ما يقطع لنا تذاكر أخرى لحفل منتصف الليل، لم أنتظر لأسمع ما تقول أغلقت الهاتف سريعًا وتعقمت.

حالة الطفل سيئة جدًا، بالفعل كان هناك انفجار والحمد لله قد استطعت أن أنقذه ، انتظرت بجانبه قليلًا في غرفة الإفاقة لأطمئن عليه، سمعته يئن من الألم أمسكت بيده الصغيرة وربت عليها أحدثه وأنا أعلم أنه لن يتذكر شيء عندما يستيقظ ولكن أحيانًا نكون نحن من نحتاج الطمأنينة،

فجأة أمسك يدي بقوة وتكلم:

-"لقد افتقدتك كثيرًا يا أخي، أعلم أنك تبحث عني، لكنك تبحث في المكان الخطأ، أرجوك ساعدني أريد أن أخرج من هنا، أن آتي إليك كم أفتقدك!"

تركت يد الصغير وابتعدت عنه بحركة لا شعورية، أمسكت برأسي أكاد أُجن من تلك الوسوسات التي أسمعها داخل رأسي كل يوم، أما اليوم سمعتها من فم ذلك الطفل الصغير، اقتربت منه مرة أخرى، سألته:

-من أنت؟

أجابني: لم تعرف صوتي حتى الآن يا أخي؟

أشعر بغصة في قلبي، ألم لا يحتمل، دموعي طافت في كل وجهي تبحث عن بر ترسو عليه ، بدأ صوتي يتهدج ، سألته هل هذا أنت حقًا؟! ، بدأ يخبرني ببعض الأشياء التي بالفعل أصبحت أذكرها، أشياء عن طفولتنا ، ابتسمت رغم دموعي ، وسألته: كيف يذكر كل هذا وهو في ذاك الوقت كان طفل صغير حقًا؟!

قال لي أن تلك الأيام لا يستطيع أن ينساها ويتمسك بها جيدًا، حتى لا ينسى من يكون، تحدثنا لنص ساعة ثم أفاق الطفل من البنج، لكن قبل ذلك أخبرني أخي أنه سوف يأتيني دائمًا حتى أستَدل عليه وأتي إليه.

تكررت لقاءاتي مع أخي بعد كل عملية جراحية لطفل، أصبحت أنتظر أن يأتيني طفل صغير مريض وأتمنى أن يحتاج لجراحة.

الأحلام مازالت تطاردني، وهناك وسوسات تهمس في أذني عن أشياء ستحدث، لم أُعرها اهتمامي لكنها تقلق نومي وتثقل هاكلي.

كل ما أفكر فيه هو أين أخي من أخذه ولما أصبح يأتيني الآن فقط؟ هل بسبب أن ذاك الخِتم الذي طمس بعض ذكرياتي قد فُتح؟

لا أدري... عقلي لا يتوقف عن التفكير ، لم أستطع أن أبوح لهُيام بما يحدث، أتمنى لو أستطيع أن أقول لها لكن أخاف عليها من ذلك المجهول.

جاءني أبي في حلمي يبكي، احتضنته وبكيت أنا أيضًا!

أيقظتني هُيام برقتها المعهودة تسألني عما حل بي ولماذا أبكي وأنا نائم؟ ، أجبتها بأنني لا أعرف... وبالفعل لا أعرف لماذا بكيت، ولكن قلبي يؤلمني بشدة ، قطع علينا حديثنا صوت الهاتف، كان أخي الكبير يخبرني بوفاة والدنا، سقطت السماعة من يدي، جلست على الأرض أبكي كطفل صغير.

هُيام تحدثت مع والدها وأخذت منه الإذن لأحضر جنازة والدي وعزائه، دخلت المنزل لأول مرة منذ ٤ أعوام، لم أكن أتوقع أن أدخله مرة أخرى، أمي كانت تجلس وسط قريناتها تبكي ما أن رأتني حتى ركضت نحوي وعانقتني بشدة ثم صفعتني وبكت، قالت من خلال بكائها:

-"هل كان يجب أن يموت أباك حتى أراك؟"

احتضنتها بقوة حتى أروي ظمأ السنين التي مرت.

أكملت مع أخي وباقي عائلتي مراسم الجنازة والدفن ثم استأذنت لأذهب، لم يتمسك بي أحد ، حمدت الله علي ذلك فلا أعرف أن تمسكوا بي ماذا كنت سأفعل؟!

صيف ١٩٨٠ .

أخيرًا استطعت أن آخذ إجازة، العمل كثيف جدًا في المملكتين، هيام تعلمت التمريض حتى تتمكن من رؤيتي فأنا أصبحت لا أري منزلي إلا بالصدفة ، اليوم ذهبنا إلي الإسكندرية، استأجرت شاليه في منطقة العجمي حيث الراحة، الهدوء والبعد عن زحمة المدينة، صرفنا فترة الصباح والظهيرة على الشاطيء نتمتع بمياهه المنعشة، هيام تبدو متعبة قليلًا، شيء متوقع في بداية الحمل، فطلبت منها أن تجلس أسفل الشمسية تستريح.

في المساء جلسنا نراقب النجوم في صمت مع الأنغام الصادرة من جهاز الراديو، شعرت أن الآوان قد حان لأخبرها عن أخي، عم حسنين يرى أنني لا يجب أن أفتح معها الحوار، ولا أن ألفت نظرها حتى لا تغضب مني، لكن لماذا تغضب؟ أنا لا أرى أخي، مجرد صوت يحدثني أو زائر في أحلامي، لذلك قررت أن أخبرها ، أمسكت يدها قبلتها وتركتها في يدي، سألتها: هل تحبيني؟!

أجابتني: بلا... وصمتت قليلًا ثم أكملت أنها تعدت تلك المرحلة منذ زمن، ضحكنا سويًا ثم أخبرتها أنني أريد أن أحدثها عن شيء، مددت يدي لأغلق الراديو حتى أستطيع التركيز فيما أريد أن أقوله، قبل أن أغلقه سمعنا خبر وفاة (رشدي أباظة) ، شهقت هُيام بفعل الصدمة وانسابت دموعها حاولت تهدئتها لكنها كانت تبكي بشدة، أخذتها بين ذراعي وتركتها تبكي على صدري ، بعد أن هدأت قليلًا ساعدتها على الوقوف لنعود إلى الشاليه وبعد خطوتين فقط سقطت مُغشى عليها!

لم أكن أعرف شعور الغيرة قبل ذلك، على الرغم من حزني على وفاة نجم مميز أحبه الجميع ولكن دب حُرق في صدري عندما رأيت حالتها تلك!

شتاء ١٩٨٥ .

بداخلي رغبة ملحة لأرى أمي، صوتها يهمس في أذني يناديني ، لقد عاهدتها أن أحادثها في الهاتف مرة أو مرتين في العام، هي لا تطلب مني أن أحادثها أكثر وأنا لا أحاول أن أفعل، لذا ما سبب كل هذا الهمس؟ ، لماذا أشعر أن هناك خطب ما؟ ، حتى أخي جاءني يسألني عنها يحثني أن أذهب لأراها، يحدثني كم يتمنى أن يذهب هو ليراها وينام في حضنها كطفل صغير.

تحدثت مع هُيام عن تلك الهمسات والهواجس التي تطاردني منذ أكثر من أسبوع، لم يكن منها سوى أنها نظرت لي مطولًا قبل أن تتركني وتذهب ، لم أفهم ما تقصد، لكن فهمت أنها لا ترحب بتلك الفكرة، أنا أعلم أن أبناءنا يُرهقوها جدًا ليس من السهل تربية ثلاث أبناء، لكن بدأت أشعر أنها لم تعد تفهمني، أو لا تحاول أن تفعل .

جاءتني مساءً تسألني ماذا فعلت؟ ، هل اتصلت بوالدتي أم ماذا؟ ، أخبرتها أنني لم أفعل فسألتني عن السبب، ضحكت داخل نفسي وصمت، عانقتني واعتذرت مني، رجتني أن أذهب لأرى أمي وأنها تريد أن تذهب معي، سوف تظهر لها وتتعرف عليها ، لقد أخذت الإذن من أبيها، شعرت بالسعادة تغمرني، انتظرت الصبح بفروغ الصبر حتى أذهب لأرى أمي مع عائلتي الصغيرة.

نمت بعد أن فكرت ورتبت مع هُيام ماذا سنفعل غدًا ، ماذا سنرتدي، ماذا سآخذ معي، إن أمي تحب البسبوسة سوف أذهب أولًا لأشتري لها بسبوسة.

أرى أمي تناديني، تبحث عني، تمشي وسط ضباب، كلما حاولت أن أقترب منها تبتعد عني، أناديها أنا أيضًا، لا تسمعني ، الضباب يشتد، تتلفت أمي كثيرًا وهي تبكي!

استيقظت من نومي على صوت الهاتف، جاءني صوت أخي يبكي ويخبرني أن أمي توفت!

مرت أيام العزاء الثلاثة وأنا جالس في غرفتها وعلى سريرها محتضنًا وسادتها وأبكي فقط أبكي، كنت أريدها أن تحبني كأي أم تحب صغيرها، أردت أن أشبع من رائحتها وحنانها ، أردت أن يكون عندي قصص عنها مثل أي شخص في العالم، كل ما أذكره عنها هو صمتها في حضوري و دموعها.

دخل أخي الكبير الغرفة عليّ، جلس بجانبي وربت على كتفي، عانقته وبكيت ملء جفوني:

-"لم أتخيل أن تتأثر هكذا يا أخي الصغير ، مادمت تحبها هكذا لماذا لم تكن تزورها أكثر؟"

مسحت دموعي واعتدلت في جلستي: "لم أكن على ثقة أنها سترحب بي."

جادلني:

-»وهل هناك أم لا ترحب بأبنائها حتى لو كانوا مخطئين؟!"

-"مخطئين؟! من؟ أنا؟ هل أخطأت في حقها؟ متى؟ أنا لم أرها منذ سنوات، حتى عندما كنت أسكن معها في نفس المنزل لم تكن تتعامل معي كثيرًا، لم نتحدث مثل أي أم وأبنها فكيف ومتى أخطأت في حقها؟"

تغير وجهه ، قام من مكانه منتهدًا:

-"ما حدث قد حدث، لا داع لذكر الماضي ، أنا أعتذر منك، هيا إلى الطعام هيا. "

وقفت أمامه في إصرارٍ أسأله: عما يقصد؟

-"يا علي كفاك، يكفينا ما نحن فيه فأرجوك لا تزيدها علينا."

أمسكت كفه، نظرت في عينيه مطولًا ، أول مرة أستخدم قوايّ علي إنسيّ، اخترقت حاجز الذاكرة، رأيت طفلان ينامان متعانقان، أحدهما يديه على عنق الأخر يخنقه أو خنقه، أما الأخر فيلُف ذراعيه حول الأول في استسلام.

تركت يد أخي كأنها صعقتني، لا يمكن .. أنا قتلت أخي الصغير خنقًا؟ ، كيف أفعل هذا؟ لا أستطيع التصديق... لا... لا...

ركضت خارج الغرفة ، خارج المنزل أتخبط بين الناس في الشارع، أركض على غير هدى، أشعر بأن هناك يد تلتف على عنقي تخنقتني، وقفت مكاني ألهث وأسعل بشدة، وقعت على الأرض من شدة سعالي، أشعر برأسي ينفجر، لا أستطيع التنفس، أصبحت الصورة ضبابية وقبل أن ينطفيء النور رأيت أخي يقف أمامي ينظر إليَّ في تشفي! رفعت يدي لأمسك به ، فأغشيَّ عليّ.

****

بدأ أخي يطاردني في كل مكان ، أراه دائمًا حولي، لم يعد يتحدث معي، يكتفي فقط بالنظر إليّ، لم أعد أستطيع أن أنظر داخل عينيه، حاولت أن أسأله عن حقيقة ما رأيت لكن لم تأتنِ الشجاعة كما لم تأتنِ لأخبر هُيام عما يعج في صدري، هي تشعر بحزني وترى تشتتي وتكتفي بنظرة حزينة، الهمسات أصبحت أكثر عنفًا تكاد تصرخ داخل رأسي، تخبرني بأشياء وتتوعدني، أريد الخلاص من ذلك العذاب ولا أدري أين المفر؟، دفنت نفسي داخل عملي ولم أفلح فلقد أصبحت كل الحالات تتحدث إليَّ من خلال البنج ، أصبحت يدي ترتعش لا أجرؤ على مسك مشرط، أريد أن أنام هل ذلك الطلب كثير؟ أريد النوم... آآآآه...

خريف ١٩٩٠ .

لا أشعر بالرغبة في الكتابة لكن أريد أن أدون ما يحدث معي حتى تعرف هُيام عن العذاب الذي أعانيه منذ خمس سنوات، هي تتهمني أنني لم أعد أحبها، لا أهتم بها مثل السابق، بل أنني أندم علي زواجنا والعهد القائم بيننا، لذلك قررت أن أعاود الكتابة مرة أخرى حتى يتسنى لها أن تعرف لما تغيرت، لما أصبحت أكثر صمتًا وشرودًا!

إن كنت أندم على شيء فبالتأكيد ليس علي زواجي منها؛ فهي حياتي التي أعيش من أجلها ولكن أندم على تلك العملية الجراحية منذ عشر سنوات، العملية التي غيرت حياتي، أخي أ أستطيع أن أطلق عليه أخي؟ ، ذلك الشخص إنه سيء جدًا ، بشع، لا أدري كيف لم ألحظ ذلك منذ أول يوم أ كان الأشتياق لوجود أحد ما من عائلتي معي؟ أم كان مجرد نافذة أريد أن أتنفس من خلالها بمفردي و بإرادتي دون تدخل منهم؟ ،على كل حال تلك النافذة أصبحت نافذة جحيم خيمت على حياتي.

إنه يطاردني في كل مكان، يطلب مني أشياء، أشخاص، أو كائنات، يريدني أن أساعدهم لكنهم لم يكُنَ أهل للمساعدة، وإذا رفضت يتوعدني و يهددني أنه سيخبر هُيام عني، وأنني نقضت عهدي معها، أنا لم أفعل أو كنت أظن أنني لم أفعل حتى ذلك اليوم المشؤوم يوم علمت ما فعلته به، كان الإحساس بالذنب ما يحركني لكن الآن أنا لم أعد أعرف أي قصة حقيقة وأيهما كذب؟ أم أن الاثنان كذب؟، منذ وفاة والدتي لم أقابل أو أتحدث مع أخي علمت من عم حسنين أن زوجته وضعت فتاة، وبذلك أصبح عنده ثلاث فتيات وصبي كم أتمنى أن أعرفهم بابني وبناتي! لكنها مجرد أمنيات أنا أعلم ذلك.

هيام تريدنا أن نذهب في عطلة، تذكرني أنه مر علينا أكثر من ثلاث سنوات منذ آخر عطلة ذهبنا إليها، إنها تريد أن نتجول في أوروبا، أنا أيضًا أريد لكنه يمنعني، يرفض ذهابي وإن كنت أريد حقًا فلتذهب إلي جنوب إفريقيا!

لابد وأن هناك مايريدني أن أفعله له هناك، ما العمل؟!

شتاء ١٩٩٠ .

سافرت مع عائلتي الصغيرة نتجول في المدن الأوربية، لم يكن الأمر بالهين، لقد عاديت من أسميه أخي، إن كنت سأخسر هُيام في أي وقت فلابد وأن أخسرها وهي تحبني، إنه يدفعني لأتصَرف بشكل يهدد علاقتي بها، لذا قررت أن نذهب في تلك الرحلة وأنني سأُصارحها، لن أتركه يستغلني أكثر من ذلك.

مر أول يوم بلا أي مشاكل زُرنا ساعة (بيج بن) ثم توجهنا لقصر (بيكهام)، وانتهت بنا الجولة في حديقة (هايد بارك) قبل الذهاب لتناول الطعام والعودة للفندق.

اليوم الثاني فضلت هُيام أن نذهب للتسوق، لا أدري عشق النساء سواء كانت بشرية أو من الجن للتسوق هناك أمر مريب في ذلك العشق!

ذهبنا إلى سوق (كوفنت غاردن) لتشتري بعض الهدايا ذات الطابع التقليدي البريطاني.

أراه حولنا يدخل خلفنا أي متجر ويراقبنا من بعيد، بدأت أتوتر، أتصبب عرقًا رغم برودة الجو، لاحظت هُيام ما حل بي وتغير حالتي، سألتني باهتمام، اعتقدت أنني تعبت وأريد الذهاب للفندق، أمسكت بيدي وأخبرت أبناءنا أن يكفينا هذا القدر من التجول ولنعاود غدًا، لم يكن مني سوى اعتراض ضعيف، عقلي لا يساعدني ، أراه يقف بعيدًا عنا يبتسم بسخرية.

ذهبنا للفندق بالفعل هو مازال خلفنا، ما أن دخلت من باب الفندق حتى سمعت صوت ينادي عليّ: "علي..."

جمدت في مكاني، التفتت هيام والأبناء ينظرون، الأرض تميد بي، ترنحت قليلًا، كدت أسقط، أمسكني أحدهم بسرعة قبل أن أسقط على الأرض، رفعت عيني لأرى من كان أخي الكبير " مصطفى"، جحظت عيناي لا تصدق ما تراه هل من الممكن أن نلتقي بصدفة مثل تلك؟!

إننا لا نتقابل بالصدفة داخل مصر ونتقابل هنا في إنجلترا!

اعتدلت وعدَلت من ملابسي، نظر لي في اهتمام وسألني عن حالي ولما أبدو هكذا؟!

لم أجبه بل تلجلجت قليلًا فتقدمت هيام لتجيبه وتعرف عن نفسها ثم عرفته بأبناءنا، كل ذلك يحدث وأنا أنظر إليهم بعين فارغة، وكزتني هيام في ذراعي لتُنبهني، أنا لم أسمع ما يقولون فأعادت هيام الكلام علي مرة أخرى:

-"إن مصطفى يريد أن نتعشى اليوم سويًا، ما قولك؟"

وعندما لم يكن هناك رد سريع مني بادرتني بموافقتها، اندهشت لتلك الموافقة ولاح ذلك على وجهي ، مما جعل مصطفى يقول:

-"من الواضح أنك أنت من لا تريد لقاءنا وليست كُنتنا الجميلة، ولكن بما أن الحكومة؛ موافقة لنتقابل هنا في بهو الفندق في السابعة مساءً."

ثم ربت على كتفي قبل أن يتركنا قائلًا:

-"لا تتأخر ، لقد اشتقت لك يا أخي الصغير."

في غرفتنا كنت مازلت تحت وطأة دهشتني التي أفقدتني الكلام، أجلستني على السرير بعد عن خلعت عني معطفي، جلست جانبي وبهدوء حدثتني، سألتني عما حل بي، توترت أكثر، أريد أن أصرخ بما يجول في خاطري، لا أعرف من أين أبدأ؟ ، احتضنتها وبكيت ملء جفوني!

تقابلنا في بهو الفندق مع أخي الكبير "مصطفى" في تمام السابعة، كنت متوتر جدًا، آخر اللقاء بيننا حين علمت منه عن تلك البشاعة التي من المفترض أنني فعلتها، تلك البشاعة التي فتحت عليّ بوابة الجحيم الذي أعيشه الآن سواء فعلتها أم لم أفعل، فإن المدعو"كريم" أخي الصغير تغير لتلك الحالة من الابتزاز والتهديد منذ ذلك اليوم!

الصمت كان يعم العشاء بوجه عام، لم يكن هناك الكثير من الكلام بعد التحية التقليدية، وتعريف أفراد أسرتي الصغيرة لمصطفى، لاحظت تبادل هُيام ومصطفى نظرات غير مريحة أتراها ندمت على موافقتها لتناول العشاء برفقته؟ ، أم أنها تحاول أن تقرأ أفكاره لتطمئن له؟!

كنت أهز ساقي بلا توقف ولكن بلا شعور ، أمسكت هيام بساقي لتمنعني من تلك العادة السيئة التي تفضح توتري دائمًا، فجأة رفع مصطفي الفوطة من على ساقيه ورماها على الطاولة قبل أن يتكلم باندفاع:

-"حسنًا كفانا تمثيل، ما بك يا رجل؟ ، ما تلك الحالة التي وصلت لها؟ ، لا تريد أن تعرفنا ومكتفي بحياتك، زوجتك ،أبنائك ورضينا، لكن تلك المسكينة بحثت عني من أجلك ظنًا منها أن تلك الحالة التي أنت فيها ماهي إلا اشتياق لجو العائلة، عن أي عائلة تتحدث؟ أنت لم ترفع عينك في عيني ولا مرة واحدة منذ أن جلسنا."

نظرت لهُيام بعدم تصديق، سألتها كأن لايهم أي شيء مما قاله سوى ما يخصها:

-"هل أنت من اتصلت به؟!"

ابتسمت ونظرت لي من خلال عبراتها: "أنت أهم من أي شيء وكل شيء."

قام مصطفى من مكانه معترضًا على شكل الحديث فعلى ما يبدو أنه فهم أنني لا أريد أن أراه، قامت هُيام هي الأخرى لتمنعه من المغادرة:

-"لقد فهمته بشكل خاطيء، هو لا يقصد بذلك أنه رافضًا لقاءك بل متفاجيء فقط لأن الدعوة جاءت مني، من فضلك لا تذهب، بل سأذهب أنا والأولاد حتى تتكلما على راحتكم."

وافق مصطفى علي طلبها ولم يغادر لكنه طلب منها البقاء.

-"علي ما يبدو أن وجودك مهم جدًا حتى تترجمي لي ما لا أفهم من تصرفات أخي العزيز الذي تركني يوم وفاة أمي بدون أي كلمة وبعد مرور خمس سنوات يبدو أن لا كلمات لديه يخصني بها!"

رفعت عيني في عينه لأول مرة منذ أن جلسنا:

-"وهل لي عين لأنظر لك بعد تذكري ما فعلت؟، وإن كنت لا أصدقه ولكن إن كلمتك فأنا أصدقه وأنا لا أقوى على مواجهة نفسي بما فعلت، وإن رفضت تصديقُك فمعنى ذلك أنك كذبت عليّ بشكل لا يحتمله قلبي ولا عقلي فكيف التعامل؟!"

نظر مصطفى لهُيام بعدم فهم: "أرجو أن تشرحي ما يريد قوله "

ولأن هيام لا تعلم عما أتحدث نظرت هي الأخرى لي بعدم فهم، صرفت أبنائي إلى غرفتهم ثم التفت أمسكت بيدها:

-"أنا آسف .. هناك ما لم أخبرك إياه لأنني لا أستطيع تصديقه عقلي يرفضه، لكن أخي العزيز مُصر على أن أتذكره وأصدقه."

أخذت نفسي وأكملت: "لقد أخبرني أنني قد قمت ..."

اختفت الكلمات من على لساني، كيف أخبرها بذلك؟!

-"لقد قمت بقتل أخي الصغير!"

صاح كلاهما في نفس الوقت: "ماذا؟"

التفت إليه غاضبًا:

-"ألم تكن تلك ذكرياتك، أنني كنت نائم جانبه ويدي تلتف حول عنقه، تلك كانت ذكرياتك أنت وليس أنا... أنت!"

هز مصطفي رأسه في عدم تصديق:

-"عن أي أخ تتحدث أنت أخي الصغير لم يكن لنا أخ ثالث أبدًا."

ماذا يقول؟ ، صرخت فيه:

"ماذا تقول؟، هل تريد أن تصيبني بالجنون لقد قرأت ذاكرتك أ تفهم لقد قرأتها كلها. "

قال مصطفى بشكل حنون غير متوقع:

" فلتهدأ الآن قليلًا ثم نكمل حديثنا."

ماذا يفعل ؟ لما ينكر الأمر لقد علمته فلا داع للنكران، اختطفت يده بسرعة لأفهم ما يقصد؟ ، غمضت عيني أبحث وأبحث داخل ذاكرته، لم أجد أحد سوانا، أين تلك الذكريات اللعينة لماذا لا أرها؟، سألته وأنا مازلت ممسكًا بيده حتى أتأكد من صدق إجابته:

-"إذن ما سبب جفاء أمي وأبي معي؟"

-"لم يكن جفاء بالعكس كان خوف عليك، لقد كنت طفل مميز جدًا بقدرات خارقة للطبيعة؛ لذلك عندما قلت أنك قرأت ذاكرتي لم أعترض أو أشكك بكلامك سوى أنك لم تفعل قبل الآن أ تعرف لما؟ لأنك لم تلمسني قط منذ ذاك اليوم!

و أنت صغير كنت كلما لمست أحد ما كنت ترى ما لا نرى، وأصبح الوضع غير مريح للكثير من معارفنا وحتى نحن، كنت تخبرنا بما لا نريد أن نعلم أو بما كنا نكذب على أنفسنا به، استمر الوضع هكذا سنوات إلى أن جاء والدنا بشيخ كبير ليرى كيف يمكن أن يساعدك وأستطاع فعلًا أن يحجب تلك الموهبة أو اللعنة عنك ولكنه طلب منا جميعًا أن لا نلمسك لأن موهبتك نابعة من لمسك للأشياء، خوف مننا أو غباء؟

لا أعلم ولكننا كنا نحميك من تلك الموهبة التي كادت أن تدمرك، وعلى ما يبدو أننا لم نستطع! "

رأيت كل ما يقول أمام عيني، جلوسي أمام الشيخ الكبير، بكاء أمي لأنها تشتاق إليَّ، مراقبة أبي لي من بعيد حتى لا أراه، سؤال مصطفى عني كل أسبوع عن طريق زميلي (رفيق)، كل هذا رأيته وأكثر، دموعي كانت أنهارًا لا أستطيع ردعها، قلبي يؤلمني، كيف يحدث كل ذلك وأنا لا أعلم؟، عن أي موهبة يتحدثون؟ ، رفعت عيني لتواجه عينه، رأيت من يدعو نفسه أخي الأصغر يقف خلفه شامتًا ، تركت يد مصطفى بسرعة وقفزت على ذلك الشامت أمسكه من ياقته:

-"أنت أنت... لماذا؟ من أنت؟ ولماذا عذبتني لسنوات؟ "

وأنا أمسك به رأيته يتشكل في شكل أخي مصطفى ويخبرني ما أخبرني، رأيته يضحك عليّ خلفي وهو يرى تخبطي، صرخت به:

-"أنه أنت ، أنت من فعلت كل هذا، لماذا...لماذا؟!"

تغير شكله لمرة أخرى وأصبح عم حسنين: "لأنني أستطيع!"

صاحت هُيام: "مازر ماذا تفعل هنا؟"

نظرت لها بذهول: "أتعرفيه؟!"

نظرت لي في حزن وهزت رأسها بمعنى نعم... قبل أن تكمل:

-"إنه مازر ابن عمي!"

-"ماذا ... لماذا لم أره قبل الآن؟"

-"لقد فعلت ولكنه كان مختلف الشكل ..لكل منا شكل إنسيّ نفضله، ولكن ذلك لا يعني أننا لا نستطيع أن نغيره، أول مرة رأيته عندما أصيب وكنت قد أخبرته عنك فجاء بشكل (عم حسنين) حتى تعالجه ويراك ليكون في دعمي أمام والدي لأنني أعرف كره أخي للبشر؛ فلن يكون داعمًا لنا أبدًا."

سقطت على الأرض لم تعد ساقي تحملني أكثر من ذلك، إذن كل ما حدث ويحدث كان من تدبيره، لماذا؟، لأول مرة أسقط حائط حماية أفكاره فأجابني دون أن أسأله:

-"حتى تصبح في تلك الحالة، أن أثبت خيانتك للعهد، لأنك أخذتها مني، كانت لي من البداية لكنك سرقتها والآن ستعود لي..."

في لحظة كانت جنودهم تحاوطنا أسروني وأسروها!

شتاء ١٩٩٥ ...

لقد مرت خمس سنوات دون أن أراكِ ، ها أنا عدت لنفس المكان حيث فارقتك، أسير في أماكن سيرنا الأخيرة، أجلس ناظرًا لتلك الطاولة التي فقدتك فيها ، لا أستطيع أن أنسى آخر كلماتك:

-"لا يهم أين أنت وأين أنا؟، يكفيني أنك تشاركني نفس الهواء، نفس السماء، يرشدنا نفس القمر، لن أكون لغيرك حتى لو كان هذا ثمنه موتي..."

لقد حكم عليك أنتِ الأخرى بالنفي عني فلا أنا أستطيع رؤيتك ولا أنت تستطيعين رؤيتي، لقد استطاع (مازر) أن يثبت خيانتنا للعهد عندما سقط الحاجز الذي بنيته في عقلي، كما أنه أخذ كلام أخي مصطفى بأنك من تواصلت معه فبذلك خنتي أنتِ أيضًا ولكن خُنتِ ثقة والدك، ذاك الأمر الذي لم يستطع أباكِ أن يغفره لك.

أعلم بمجهوداتك في تخفيف الحكم عليّ ، فحسب ما سمعت لابد أن يكون حكمي مدى الحياة ولكن والدك أصدر حكم النفي لمدة عشر سنوات فقط، كم تمر الأيام ببطء!

أشعر وكأن عقرب الثواني يأخذ ساعات حتى يتحرك! أتراني سأراك مرة أخرى بعد انقضاء مدة النفي؟!

*****

صيف ٢٠٠٠ .

مر ما يقرب من عشر سنوات على فراقنا ، اليوم تركت عملي في الطب، لن أكون طبيب بعد الآن ، مازالت أبحث عن وجهك في وجوه من أرى ، لا أدري إن كنت أستطيع أن أراك مرة أخرى أم لا؟ لكن قلبي يملؤه الأمل، لقد أوشكت سنوات عقابي على الأنتهاء، بالرغم من قسوة والدك لكنه كان رحيم أيضًا عليّ فلو على أخيك كان العقاب سيطول العمر كله، الآن عندي أمل أن يكون عقابك انتهي وأستطيع أن أراكِ مرة أخرى!

*****

شتاء ٢٠٠٣ ...

اليوم جاءني (مازر) - عم حسنين - وبصحبته اثنين من أحفاده، يخبرني أنهم سيكونوا مرافقيني حتى لحظة موتي، علمت منه أن أباكِ توفى، كنت أتمنى أن أكون إلى جانبكِ، أنا أعلم ألم الأب كيف يكون!

كما أخبرني أن أخاك من تولى الحكم بعده وتلك هي أوامره الجديد، وأن الحكم المخفف الذي أخذته كان بفعل تأثيرك على والدكِ، والآن لا يوجد سبب لذلك الحكم المخفف والحكم صار ساريًا مرة أخرى، تخيل أنه هكذا يضايقني ويضيق عليّ:

-"لا يهم افعل ما تشاء، فلا شيء يهم!"

خريف ٢٠١٨ ...

-متقولش حسنين بقى، قول (مازر) أصلي بحب اسمي أوي...

دفع درويش هُيام الصغيرة لتقف خلفه كنوع من الحماية، واجه (مازر) بتحدي:

-"المرة دي مش هتقدر تثبت حاجة، لأني معملتش حاجة ممكن تضربها بوشي وتقول أنا اللي خبطها، المرة دي أنا لا ليا أهل ولا صديق واحد أوحد أقول عليه صحبي، المرة دي مفيش هُيام عشان تبتزني بيها!"

طأطأ (مازر) بفمه قبل قبل أن يقول:

-"ونسيت هُيام الصغيرة اللي كانت في حضنك من شوية؟!"

صاحت هُيام:

-"أنت تقصد إيه يا قليل الآدب؟، وبعدين حتى لو حصل ده عمي فاهم يعني إيه عمي؟"

صفق مازر بحرارة:

" برافو عليكِ .. لا أنا مش عارف يعني إيه؟ ممكن تفهميني كمان؟ "

أمسك درويش بذراع هُيام الصغيرة حتى تصمت، فصمتت وهي مازالت لا تُدرك ما يحدث حولها، تعي تمامًا أن هناك خطب ما في علاقتها بعمها ولكن لا تعلم ما هو؟!

-"كلمني أنا ولا أنت ما تعرفش تتكلم مع رجاله؟!"

لاحت علامات الغضب على وجه مازر، بدأت الأرض تهتز، وقف درويش في تحدي أمام مازر الذي خرج من عينه ضوء أحمر مائل للسواد، الضوء يحيط ب(درويش)، درويش ينظر بتحدي، يخرج من عينه ضوءه الأبيض المائل للزرقة، بدأ الاثنان يتقهقرون قليلًا للخلف، عروقهم تبرز في رقابهم،

يتصببا عرقًا بغزارة ، الجو يحمل شحنات كهربائية ، هُيام تشاهد ما حولها في خوف، أنيس وسمير ينظران باستمتاع يهمس أحدهم الآخر:

- أخيرًا حبة أكشن بدل الملل اللي عايشينه ده!

-تفتكر مين فيهم اللي هيكسب؟

-مازر طبعًا!

-أنا بقول درويش.

-رهان؟

-رهان.

تصافح الاثنان ليُصدقا على اتفاقهم، ابتسم مازر بِشَر قبل أن يضرب يده في الهواء فإذا بالأرض تميد تحت قدمي درويش ليسقط على الأرض، تخرج أياد من تحت الأرض تحاول أن تمسك رأسه لتصل إلى عنيه، هيام الصغيرة تصرخ من الرعب، أنيس وسمير في حالة استمتاع أما كبير القبيلة كان يتابع في اهتمام، اقتربت منه هُيام وهي خائفة تحثه على التصرف، طأطأ بإصبعه فقُذفت هُيام الصغيرة إلى الحائط بعنف مما أثار استياء درويش الذي صرخ باسمها، وبدا أن غضبه أفاده؛ فقد استطاع أن يتخلص من تلك الأيدي التي تحاول الامساك به ووقف على قدميه مرة أخرى، هُيام الصغيرة قامت هي الأخرى ووقفت خلف عمها، أمسكت بيده، بدأت هي الأخرى يخرج من عينيها ضوء يجابه (مازر)، صفق بيديه في تحدي وقال ساخرًا:

-مافيش أقوى من الدم ولا إيه رأيك يا طيكل؟ ولا احنا دمنا مش زي دمهم؟!

-لا طبعًا أقوى كمان من دمهم، بس كوني رئيس القبيلة يمنعني أدخل، مدام الإنسيّ مأذنيش.

بدأ (مازر) يتقهقر أكثر، بدا أن قواه بدأت تنفذ، قال بنفاذ صبر :

-انسى القوانين شوية وافتكر إني ياما ساعدتك لحد ما وصلت للمكان اللي أنت فيه ده ، ولا نسيت؟!

سقط (مازر) أرضًا فضرب بيديه الهواء مرة أخرى محاولًا إسقاط درويش للمرة الثانية لكن درويش أصبح أقوى منه بكثير عندما اتحد مع هُيام الصغيرة.

صرخ مازر : طيييييكل!

انضم أنيس وسمير لجدهم، ساعداه على الوقوف ثم واجهوا درويش، بدأ الجنود ينضمون معه أيضًا، أصبح عددهم يفوق العشرة في مواجهة درويش وهيام الصغيرة ، همس درويش: أنا آسف!

لم تفهم هيام لما الأسف؟ ، بدأ الضوء الخارج من درويش يضعف، كأن قواه نفذت، أصبحا الآن محاصران من جميع الاتجاهات، هيام تركت يد عمها ووقفت خلفه تواجه من الخلف آمله أن تستطيع حمايته من الخلف لكنها فشلت فبمجرد أن تركت يد عمها خفت ضوئه تمامًا وسقط علي الأرض ، سقطت جانبه وهي تبكي ، زاد الحصار عليهم، قال درويش بصوت متقطع:

-آسف...آسف أوي، كان نفسي اعرفك وقت أطول، ومتبقاش دي النهاية!

احتضنته وبكت ، استطاعت أن تبني جدار يلفهم معًا لكنه جدار ضعيف، هي أيضًا تعرف أنها النهاية، قالت من بين دموعها:

-أنا مش آسفة، أنا كنت سعيدة بالأوقات القليلة اللي قابلتك فيها.

فجأة أضاءت الغرفة بضوء قوي أطاح بمازر، أنيس وسمير وكل الجنود أرضًا...

وقفت هُيام وأبنائها الثلاثة حول درويش وهُيام الصغيرة في شكل دائرة لحمايتهم ، تدخل طيكل معترضًا وبلهجة آمرة:

-من سمح لكِ بالتدخل؟! فلتأخذي أبنائك وتذهبي الآن قبل أن تسجنوا جميعًا.

قالت بتحدي:

-أنا سمحت لنفسي، ومش هسمح لحد تاني يؤذيه، ولو حابب تجرب تسجننا جرب وقرب أنت أو أي حد!

تقدم أبنائها الثلاثة ليقفوا أمامها، تراجعت قليلًا ثم انحنت على درويش، أمسكت يده، همست في أذنيه:

-أنا جيت خلاص وولادك كمان، أوعى تسيبنا وتمشي، عمري ما هسمحلك أبدًا.

سمعت صوت جماعي يحدثها: نسيتينا ولا إيه؟!

دخل الغرفة العديد من الفتيان والفتيات ليلتفوا حولها هي ودرويش، قالت بكل فخر ومن خلال عبراتها: وأنا أقدر انساكم!

ثم وجهت الحديث لدرويش: احب اعرفك بأحفادك!

صيف ٢٠١٩...

على الشاطئ الفيروزي لمرسي مطروح ، حيث الهدوء، الراحة، الهواء النقي والرمال البيضاء...

جلس درويش على مقعده يستريح ويمسح عرقه، عاتبته هيام برقة:

-أنا كده هبتدي أغير منهم، أنت مبتقعدش معايا خالص ووقتك كله ليهم.

أمسك درويش بيديها وقبل أناملها:

-أنا أقدر برضه؟ بس أعمل إيه عايز أعوض السنين اللي عدت دي كلها، وبعدين متنسيش أنهم السبب إننا اتجمعنا تاني.

ضحكت هيام بدلال:

-ماهو دا اللي مصبرني عليهم، أن لولاهم كنت هفضل في المنفى بتاعي وأنت بعيد عني، متخيلتش أبدًا أنهم كانوا بيدورا على طرق تجمعنا من غير ما يقولولي ولا حتى يخلوني أشك، لكن نقول إيه ولادك وولادي يعني مين ممكن يقف قدامهم؟!

-أنا برضه مش عارف عِرفوا يوصلوا ليا ازاي ، اشمعنا دلوقتِ مش قبل كده؟!

-هُيام الصغيرة السبب أو جزء من السبب، الهالة بتاعتها كانت واضحة لينا، بس زيها زي هالات كتير بنقابلها ومش بنهتم بيها، لحد يوم سمعوها وهي بتناجي بجملتك

-"أنا في الظلام وأحتاج من ينير لي الطريق."

أنا طبعا كنت حكيالهم كل حاجة عننا وأن الجملة دي اللي سمعتها منك وعرفت أوصلك بيها لما بعدوني عنك أول مرة ، بس فلما سمعوا الجملة وصلوا لهيام الصغيرة اللي وصلتهم ووصلتني ليك بس كده.

تنفس درويش الصعداء، سحب كم كبير من الهواء داخله ثم أخرجه ببطء ، نظر في عين هيام مبتسمًا:

-إنتِ عارفة الجو ده بيفكرني بإيه؟

-ها!

-لما كنا في العجمي.

-أي مرة دي؟

نظر لها بجانب عينه بلومٍ مصتنع:

-لما قعدتِ تعيطي عشان رشدي أباظة وأنا عمال أهدي فيكِ وإنتِ أبدًا، شغالة عياط ومش مراعية أني ممكن أغير مثلًا...

-بتغير عليا يا روحي؟

-من روحي كمان بغير!

تعالت ضحكاتهم مما جذب انتباه الأحفاد الذين التفوا حولهم و أجبروهم على نزول البحر معهم وسط ضحكات نابعة من القلب.

تمت

جميع حقوق النشر محفوظة .

ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو نقله بأى شكل من الأشكال أو تدواله إلكترونياً نسخاً أو تخزيناً دون إذن خطي من الدار .